
عمر بن الخطاب
البطل
والمثل
والرجل
دكتور نظمي لوقا
مكتبة غريب

عمر بن الخطاب

البطل والمثل والرجل

بقلم

المفكر المسيحى

الدكتور نظمى لوقا

الناشر

مكتبة غريب

٣٠١ شارع كامل صدقى (الفجالة)

تليفون ٩٠٢١٠٧

اهـداء

إلى السائرين فى الظلمة

ومن يلوح لهم - من أنفسهم -

فجر جديد

وأيضا إلى

ضحايا التعصب الجاهل الأرعن ،

على اختلاف عقائدهم . . .

نظمى لوقا

من رقيق الأرض

المتمردين على الأغلال

لماذا

يكتب مفكر مسيحى

عن الإسلام وأقطابه ؟

فى مطلع كتابى « محمد الرسالة والرسول » كتبت هذه العبارة :

« من يغلق عينيه دون النور ، يضير عينيه ولا يضير النور » .

وهى حقيقة مستمدة من تجربة العقل الانسانى ، أيا كان لون هذا الانسان أو جنسه أو ديانته . فما من تدين صحيح يملى على هذا المتدين أن يغلق عينيه ، أو أن يفتحهما حين يجد ما يوافقه ، ويغمضهما حتى لا يرى مالا يوافقه . أو أن يضع على عقله حجابا يعطل نفاذه ، أو أن يجعل على ذمته « رقيبا » يلتوى بها كى لا يقول الصدق بغير جمجمة ولا لعثمة ، أو يكتمه إيثارا للهوى وإهدارا للأمانة .

والاسلام بكل تراثه مصدر له وزنه للحضارة الانسانية ، وموضوع للدرس والاعتبار ، لا يخص المسلمين دون سواهم . بل إنه - بما هو موضوع للمعرفة العقلية الفاحصة الأمينة - منهل مبذول لكل ذى عقل وبصيرة ، ولا يشترط فى هذا العاقل البصير طالب المعرفة أن يكون مسلما . فالإسلام عقيدة إيمانية لها خصوصيتها . أما العقل فلا خصوصية له إلا معاييره النزيهة التى لا تعرف المجاملة ، ولا التحامل .

وأضرب مثلا حسيا مجسما لتقريب المسألة إلى ذهن من عساه يحتاج إلى هذا التقريب : جسمى ملكى ويخصنى فى المقام الأول بما هو جسم . بمعنى أنه لا يمكن أن يستخدمه أو يعيش به وبوظائفه الحيوية أحد سواى ، مهما كانت درجة قرابته منى . أما حين يتعلق الأمر بمعرفة وظائف

هذا الجسم ، فهذه المعرفة لا شأن لأحد بها إلا لمن يملك أسبابها ووسائلها ومنهجها . وقد لا أملك أنا شيئا منها ، فأكون أجهل الناس بجسمى الذى أعيش به ، ويكون أدرى منى به الطبيب والعالم والدارس ، حتى ولو لم تربطنى به صلة قرابة ، أو جنس ، أو لغة ، أو ديانة !

وكل ما يشترط فى هذا الطبيب أن يكون نزيها مخلصا باذلا أقصى ما يملكه من معرفة وفهم . وغبى ولا مراء من يحكم على طبيبى بأنه قريبى أو نسيبى أو تربطه بى عاطفة أو آصرة من الأواصر ، لأنه يرى إخلاصه فى فحص جسمى ودراسة خواصه .

ومصدر خلط الناس فى أمر مثلى ، ممن يدرس تراث ديانة غير ديانته أن الأمر يلتبس عليهم فى مفهوم الديانة ، فالديانة عند هؤلاء المتعجلين فى الحكم عقيدة قوامها الانتماء الايمانى ولا شىء آخر . ويغيب عنهم أن لها مفهوما آخر - إلى جانب مفهوم العقيدة الإيمانية - وهو أنها « موضوع » يصلح للدراسة المعرفية . وليس هناك ما يوجب إطلاقا أن يكون الدارس لهذه العقيدة منتميا إليها مؤمنا بها ، لأن الدراسة شىء غير الانتماء الإيمانى . الدراسة نشاط معرفى . لا علاقة له أصلا بالانتماء الإيمانى .

وهنا لابد لنا من كلمة موجزة عن النشاط المعرفى ، لننبه إلى أنه عملية عقلية موضوعية أول شروط سلامتها النزاهة التى تتجرد من شتى العواطف ، فهى لا تتحيز أو تحابى ، ولا تتحامل أو تفتات . وإنما هو ميزان العقل المنصف الذى يقوم بالصدق والقسط .

ونضرب مثلا للتفريق بين العاطفة أو الهوى - سواء بالميل أو النفور - وبين العقل النزيه الذى لا يعرف سوى الصدق ومبادىء الحكم المنطقى والمعرفة المحايدة . لنفرض أن باحثا مهمته تحليل الدم ، أو التصوير بالأشعة . فلعمله - كى يكون صحيحا - غاية واحدة هى تقديم الصورة الأمينة التى لا تخفى شيئا ، ولا تغير شيئا من الواقع . فلا تحمله العاطفة

أن يخفى ما يسوء الشخص الذى يحبه ، أو يضيف ما يسىء الشخص الذى يبغضه .

وعـين الـرضـا عن كل عيب كليلة
ولكـن عين الـسخط تبـدى المسـاويا

ولا يقال مثل هذا البيت على سبيل الإقرار والتحبيذ لهذين النوعين من الأعين ، بل على سبيل التنديد بهما ، وأنهما ليسا العين الصحيحة التى ينبغى أن يكون النظر الصحيح بها وحدها ، لأنها تتجاهل مشاعر الرضا والسخط ، ولا تعرف إلا الصدق والأمانة للحقيقة فى تقييم الواقع والحكاية عنه .

ولعل سائلا يسأل :

- هل الرضا والسخط إذن محرمان تحريما كليا مطلقا على الدارس أو الباحث الموضوعى ، وعلى الفيلسوف من باب أولى ؟ أليس هذا خليقا أن يجعله إنسانا ناقص الإنسانية ، لأنه فكر كله ، بغير مشاعر كالتى يتحمس لها الناس أو يسخطون بسببها ؟ ألا يحب الفاحص الموضوعى ولا يكره ولا تمتلىء جوانحه بالإعجاب أو تتقزز نفسه من الأمور التى ينفر منها الناس ويضيقون بها ؟ ألا يعرف فرقا بين الحسن والقبيح ، فلا تهش نفسه لشىء ولا تنقبض عن شىء ؟ أهذا الوضع - إن صح أنه ممكن إطلاقا لأى أحد من البشر - يضفى عليه مزية تؤهله لصدق النظر وصواب الحكم على الأمور وعلى الناس ، أم هو - على الأصح - علامة نقص فيه تنقض هذه الأهلية ؟ وهل « المعرفة » الصادقة نقيض حقا للرضا والسخط بحيث أنهما لا يجتمعان لشخص واحد إلا فسدت قدرته المعرفية ؟ والجواب عن هذا كله يجلو كل هذه الحيرة إذا ما راعينا الفارق بين الوسيلة والغاية . أو بين المنهج والحقيقة المعرفية التى نصل إليها بهذا المنهج . فالباحث المعرفى عليه قطعا أن يحرم على نفسه كل مشاعر الميل أو التحامل وهو فى مرحلة البحث المعرفى .

فالرضا والسخط قبل تمام المعرفة حرام لا باعتبار ذاتهما ، بل هما محرمان على الباحث فى هذه المرحلة فحسب ، لأنهما يؤثران على بحثه ويقضيان على نزاهته واستقامته وحيدته ، وهى صفات يجب أن تتوفر بصورة مطلقة للمنهج المعرفى . فالمعرفة الصحيحة لابد أن تكون ثمرة زواج شرعى بين التجرد النزيه وبين البحث اليقظ فى واقع ما بالعقل وجده . فاذا تدخلت الأهواء والانفعالات والأحكام المسبقة فى هذه العملية كانت أشبه بدخول الزنا على الزواج الشرعى ، دخولا يفسد كينونته ، ويفسد ثمرته ، فتأتى المعرفة عندئذ « بنت سفاح » لا تصح نسبتها إلى الأب الشرعى وهو العقل ، وإن نسبت إليه زورا وبهتانا ، وأدخلت فى روع الناس ما يخالف الحق والواقع !

ولكن هذا « التحريم » المرحلى أو « المنهجى » للرضا والسخط ، يزول تماما متى وصل الباحث الموضوعى إلى المعرفة الصحيحة التى هى ثمرة شرعية للبحث العقلى الذى لم تدخل على عملياته الأمينة « خيانة » من فعل الأهواء - التى من قبيل الرضا والسخط - فعند تمام المعرفة الصحيحة النزيهة يسترد الباحث حقه كاملا فى الرضا والسخط بناء على ما تحقق له من المعرفة النزيهة ، فيرضى أو يسخط لا عن هوى أعمى . بل عن معرفة وتبصر .

وما أعظم الفرق بين الحالين! فالرضا والسخط عن هوى أعمى ، أى قبل المعرفة ، يتسلطان على العقل ويزيفان ثمرته الطبيعية . أما الرضا والسخط بعد معرفة وتبصر فالعقل هو الذى يتسلط عليهما ويمدهما بالشرعية الكاملة . فهما إذن فى البداية أب فاسد للرأى ولكنهما فى النهاية ثمرة قويمة للعقل . وشتان هذه وذاك !

شتان هما ، لأن الرضا والسخط قبل إعمال العقل ، وفى أثناء إعماله ، هوى أعمى ضال مضلل . أما الرضا والسخط بعد الفراغ النزيه المتجرد من تحصيل المعرفة أو الوصول إلى رأى فيها فليس هوى ، بل هو حكم أخلاقى أو تقييم مبنى على حكم معرفى أو « علم » .

فمن رضى أو سخط ثم حكم فقد جار وظلم . وصار بضلاله فى عداد الحمقى . أما من عرف وعلم ، ثم رضى أو سخط ، فهو على هدى من أمره ، وهو بهذا فى عداد الحكماء ، الذين يغضبون للحق ويسرون به ويغارون عليه .

وما بنى على حق فهو حق ، ومابنى على باطل فهو باطل .

ومامن ادعاء للتدين يسوغ لصاحبه أن يحكم حكما معرفيا مبنيا من أساسه على الرضا أو السخط على أى عقيدة أو تراث يخالف عقيدته أو تراثه الذى وجد نفسه ينتمى إليه . لأن هذا الحكم يأتى - كما بينا - بمثابة « ابن سفاح » فهو نتيجة « زنا معرفى » ، تلتوى به الأهواء التى تتدخل فى العلاقة التى ينبغى أن تكون خالصة تمام الخلوص بين العقل المحايد والموضوع الذى يريد أن يصل إلى معرفته معرفة لا زيف فيها ولا زيغ . . .

أجل ، مامن ادعاء للتدين يسوغ هذا التعصب الجاهل الأرعن أو يدعو إليه ويحبذه ، لأن التدين يعلّم أول ما يعلّمه الأمانة والصدق . والهوى المفسد للمعرفة الصحيحة نقيض الأمانة والصدق .

فخليق بالمتدين أن يعرف أن انسياقه مع الهوى فى أحكامه على العقائد الأخرى ليس إخلاصا لديانته ، بل هو خيانة لروحها ، ولباب تعاليمها . فأى خير يبقى لديانة لا تنهى عن الجور فى الرأى والافتئات فى الحكم ، سواء أكان من يطلق عليهم أحكامه مخالفين له أو أنصارا . . . ؟

خائن مسىء لديانته من ينصرها بغير الحق والعدل ، قبل أن يكون مسيئا للديانات المخالفة ومن ينتسبون إليها .

وقديما قيل إن الأحمق عدو نفسه ، وقيل - بحق - إن العدو العاقل خير من الصديق الجاهل . والجهل هنا ليس بمعنى عدم المعرفة فحسب ، بل بمعنى الحمق وعدم التبين والتبصر عند تكوين الرأى واتخاذ القرار .

فإذا وعينا هذه الأمور جيدا ، سهل علينا أن نجيب عن ذلك التساؤل الذى جعلناه عنوانا لهذا الفصل ، وهو :

ـ لماذا يكتب مفكر مسيحى عن تراث الاسلام وأقطابه ؟

والسبب الأول أنه يفكر ، والمفكر ـ عالما كان أو فيلسوفا ـ من حقه قطعا أن يعمل عقله وقدراته المعرفية فى كل ما له شأن وأهمية من الأمور . وتراث الاسلام وأقطابه ركائز لها أهميتها وأثرها الكبير فى أمور العالم وتطور تاريخه، ولا سيما فى المنطقة العربية. فإذا كان هذا المفكر عربيا صار نظره فى هذه الأمور الخطيرة واجبا لا حقا جائزا مباحا فحسب . . .

والدافع الذى يلى ذلك أنه مسيحى . والمسيحية تأمر بالمحبة للعدو والصديق على السواء . وأول مراتب المحبة هى « التطوع » بالانصاف وإيفاء العقيدة المخالفة حقها غير منقوص من التقدير والتقييم . . . فبذلك يكون هذا المفكر المنصف مخلصا لمسيحيته وروحها المتميزة بالسماحة والحب ، مثلما هو مخلص فى الوقت نفسه لمهمته المعرفية ومنهجها العقلى النزيه المتجرد من الأهواء العمياء ، من رضا أو سخط متى قاما على غير أساس صحيح من الاحاطة النزيهة بالموضوع .

فإذا كان هذا المفكر المسيحى عربيا ، فالداعى لهذه البحوث فى الإسلام بتراثه وأقطابه أوجب ، لأنه عندئذ يعرف عشراءه ومواطنيه وقومه المعرفة التى ترضى العقل ، وترضى سماحة المسيحية ، وترضى الواجب القومى والوطنى على السواء .

وغير خاف أن تراث الاسلام حافل بما يعنى الانسان ، فليس من الخير للبشرية أن تحجب عنها هذه الكنوز من « الخبرات » و « التجارب » و « القيم » و « السلوكيات » . وماأحرى هذا أن يشغل اهتمام كاتب تعنيه هذه الجوانب ، ويعنيه كل شعاع مضىء ينبثق منها لينير للبشر ـ بما هم بشر

أيا كانت عقائدهم وقومياتهم ـ طريقهم فى حياتهم المعاصرة ، التى تعقدت وتشعبت فيها المسالك ، وانبهمت فيها المعايير . . .

ولست أفهم كيف تستطيع أن تعيش أمة كالأمة العربية كما ينبغى أن تعيش مالم تعرف كل طوائفها ـ سواء من الأغلبية أو من الأقليات ـ حقيقة تراثها القومى الذى هو ملك للبشرية كافة ، وهو من باب أولى قسط مشترك بين كافة طوائف الأمة العربية أولا .

ولست أعقل أن يجهل أى قسم من أقسام هذه القومية العربية ما لدى القسم الآخر من فكر وفهم وقيم . . . فلا غنى عن المعرفة النزيهة بالجانب الآخر وقيمه وتراثه .

ولئن كان من عمل « الدعاة » و « الوعاظ » أن ينشروا معرفة التراث بين المنتمين إليه ، لمحو أميتهم المعرفية والفكرية بتراث ديانتهم ، فليست هذه مهمة المفكر العلمانى ، الذى ليس داعية ولا واعظا لبنى ملته ، بل الأولى به أن يكون قدوة ومثلا لبنى ملته فى التعرف على تراث الملة الاخرى بكل الموضوعية والتجرد من التحامل ، ليقدم لهم « نفائس » تراث هذه الملة ، التى تنفع معرفتها أبناء ملته ، وأبناء الملل الأخرى على السواء ، لأن منهجه عقلى نفسى موضوعى . والناس ـ فى ملته وفى غيرها سواسية فى العقل والنفس والموضوعية متى التزموها وارتقوا اليها ، مثلما هم سواسية فى الهواء الذى يتنفسونه والماء الذى لا حياة لهم بدونه .

ثم فليعلم من لم يعلم بعد أو لم يفهم أننى قد أكتب فى أمور تتصل بالدين عن قرب أو عن بعد ، ولكننى لست كاتبا دينيا ، ولا أمارس الكتابة بمنهج دينى ، بل بمنهج فكرى ومن منطلق إنسانى ، ومن المستوى الذى يعنى الناس كافة ، ويشترك فيه كافة العقلاء .

إننى مسيحى أجل ، ولكننى لا أكتب بالنظرة العقائدية المسيحية ، وأكتب عن الاسلام ، ولكن ليس بالنظرة العقائدية الاسلامية ، بل بالنظرة الانسانية العامة . اكتب عن الانسان للانسان بما هو إنسان .

هذا الحاجز النفسى

من كان مثلى من دعاة اليقظة العقلية فى كافة أمور الانسان خليق به أن يحارب أسلوب خداع النفس ، الذى يشبه حال النعامة التى يقال أنها تدفن رأسها فى الرمال حتى لا ترى ما تخافه أو مالا يروقها .

أجل خليق بنا أن نتصارح بلا مواربة . فالحاجز النفسى بين عامة أهل الديانات مصدره الجهل من جانب من أصيب بهذا الحاجز النفسى . وهذا المصاب يكون أحيانا أحد الطرفين ، وأحيانا أخرى يصاب الطرفان كلاهما بهذا الحاجز الذى قد يشف بحيث لا يراه المصاب به ولا يدرى بوجوده وإن كان فى الوقت عينه يحجب عنه ـ أو يلوّن ، أو يشوّه ـ مالدى الطرف الآخر ، وهو يحسب أنه يرى ذلك الطرف الآخر على حقيقته .

هذا الوضع الشائن ـ وضع التحاجز النفسى ـ نتيجة طبيعية للجهل ، بل لنوع فريد من الجهل ، هو سبب التعصب ، وهو ثمرته أيضا ، فهو الوالد وهو الولد فى آن واحد !

ومن حق القارىء أن يتساءل : وكيف كان ذلك ؟

والأمر بسيط ، إن نحن أمعنّا النظر . فالمشاهد أن فطرة الانسان السوى تدعوه إلى المعرفة ، مدفوعا بحب الاستطلاع المركب فيه ، منذ الطفولة ، فهو لا يدع شيئا من حوله لا يتنلوله بحواسه ليكتشف ما هو . وكيف هو. ثم مع تقدمه فى مراحل النمو لا يلبث أن يسأل : لماذا هذا الشىء هكذا . . . فالانسان مطبوع على حب المعرفة ، ولا يهدأ له بال . مالم يكن

بليدًا أو متخلف القدرات الذهنية - حتى يعرف كل ما يقع تحت حسه . . .

ومن هذه البذرة تنمو كل العلوم والمعارف التى لا تقف أمام حاجز المكان أو المسافة مهما بعدت عنه بعد النجوم فى مسالكها . ومن هذه البذرة أيضا - وفى إطار طبيعته الاجتماعية - يصبو الانسان السوى إلى معرفة غيره من الناس ، مهما بعدت الشقة بينه وبينهم أيضا . فكانت منذ أقدم العصور كشوف الرحالة التى لم تحل دونها مشاق السفر وأهواله ومخاطره .

وكان تباين الكائنات وغرابتها عن مألوف الانسان سببا أدعى لاستثارة حب الكشف والاستطلاع فيه . . .

فمن العجيب إذن أن نرى أصحاب ديانتين متباينتين لا ينشب بينهما حب الاستطلاع الطبيعى المعهود فى سائر الأمور . . . مع أنه قد لا يفصل بينهما اتساع المسافة ، ولا فارق اللغة ، فى حين شحذ هذا التباين انتباه علماء أفذاذ لم يعقهم بعد الموطن ولا غرابة اللغة عن البحث فى أمثال « ما للهند من مقولة ، مقبولة للعقل أو مرذولة » و « الملل والنحل » وما إلى هذين الكتابين من أعمال فكرية ينحنى المرء أمام ما تمثله من حب المعرفة وكشف ماهو من أمور البشر مجهول أو غريب ، على ما فى ذلك العصر الغابر من ضعف الوسائل .

ولكن أولئك النفر أفراد من أفذاذ المفكرين ، وليس حديثنا هنا عن الخاصة ، بل عن « عامة » الناس .. وكيف أنهم - مع توفر الوسائل وحضور الموضوع بين ظهرانيهم - لا تنشط فطرتهم الطبيعية لمعرفته معرفة عقلية نزيهة وهى الفطرة - التى حفزتهم منذ الطفولة على معرفة ماحولهم من « الأشياء » ليفرقوا بين الثمرة والجمرة ، وبين الأفعى والحبل ، وما شاكل ذلك . .

كيف حدث أن عامة الناس فى أمة واحدة ، إذا وجدت فيها ديانتان ، قامت معرفة كل فريق لديانة الفريق الآخر على غير الأساس الطبيعى الذى

يعرفون به كل ما يعنيهم من موضوعات بيئتهم ؟ مع أنه لا حائل هناك من بعد المكان ، أو اختلاف اللغة ، بل إن الفريقين يتخالطان فى كل ساعة من ساعات النهار ، فى الأسواق ، ودور العلم ، ودور اللهو ، وكافة مناشط الحياة ، فيماعدا دور العبادة ، بغير فواصل ؟

إنه الحاجز النفسى ، وهو من ذلك النوع الماكر الذى يلون الرؤية ، من غير أن يشعر الرائى بوجود هذا العامل الكامن فى سريرته .

ولست أعنى أن بينهما تباغضا سافراً بالضرورة ، بل أعنى أن الحاجز النفسى هنا يعطل المعرفة السوية النزيهة ، بحيث يكتفى الفرد بالتعامل مع الطرف الآخر بالحسنى والتهذيب ، ولكن بغير معرفة صحيحة واضحة لمكوناته الاعتقادية التى هى أشبه بالبوصلة التى تحدد له أنماط سلوكياته بوجه عام .

وهكذا تنشأ حالة غريبة : فقد يألف الفرد من هذا الفريق فردا من الفريق الآخر ، بحيث يأتمنه على ماله وعلى عرضه وعلى دفائن سره ، ويحمد منه خلائقه جميعا ، ولكنه إذا سأل نفسه عن « البوصلة الاعتقادية » لذلك العشير استولى عليه نفور غامض ولكنه حاسم .

إن النفور مماهو « مباين » أو « مختلف » أو « غريب » . وهنا نشاهد أثر « الحاجز النفسى » واضحا . . . ذلك الأثر الذى يكفى لتصوير جسامته أنه يوقع صاحبه فى تناقض فادح : فهو فى الوقت الذى يحمد فيه سلوك إنسان واتجاهاته يعتقد باصرار أن « بوصلته » مختلة ، بعكس « بوصلته » هو !

إحدى اثنتين أيها العقلاء : إما أن تكون البوصلة سليمة فاتجاهاتها إذن سليمة ، وإما أن تكون مختلفة فاتجاهاته إذن مختلفة . . . أليس الدين المعاملة ، أى السلوك ؟

الشأن فى حالة « المودة » الشخصية والثقة الفردية بين المتخالفين فى

الديانة ليست الحالة الغالبة ، فأهل الصداقة والإخاء جماعات صغيرة ، بحكم « فردية » مثل هذه العلاقات . . . والحاجز النفسى هاهنا لا يكتشف إلا بامعان النظر ، وغالبا ما يصرف كل من الطرفين ذهنه عن هذا الجانب ، وإن لم يخل من أسف لأن خليله له عقيدة مختلفة ، وهى تلك العقيدة التى لا يعرفها المعرفة الموضوعية المحايدة .

أما الحالة الغالبة فى عوام الأمة الواحدة التى بها ديانتان ، فهى وجود هذا الحاجز النفسى جنبا إلى جنب مع « التعايش » السلمى ، وتبادل المجاملات الظاهرية مااستقامت الأمور . . . حتى إذا تعكرت الأجواء ، برز التنافر من مكمنه ، وكشرت الفتنة عن أنيابها !

فماحكاية هذا الحاجز النفسى ؟

إنه النفور مماهو مختلف ، كما تنفر الدجاجات البيضاء من الدجاجة السوداء ، فتوسعها نقرا . . .

وماعلاقته بالجهل ؟ أهى علاقة المانع من نشاط المعرفة نشاطها الطبيعى للتعرف على حقيقة « ماهو مختلف » ؟

لو كان هذا صحيحا ، لكان الحاجز النفسى سببا فى أن يجهل كل طرف ديانة الطرف الآخر ، بمعنى ألا يعرف عنها أى شىء . ولكن الأدهى أن الجهل الذى يتسبب فيه الحاجز النفسى ليس « انعدام المعرفة » انعداما تاما ، بل هو « معرفة ملتوية أو مشوهة أو منحرفة أو متحاملة » . فالجهل التام انعدام رؤية ، وانعدام رأى ، أما هذا الجهل فهو رؤية ظالمة !

ومن المعلوم أن العوام قوم يعيشون بانفعالاتهم أكثر مما يعيشون بعقولهم ولذا تجدهم قلما يقدرون على ضبط النفس ، ومن الطبيعى أن تجد كوامن النفور من « المعدن الغريب » فرصتها المواتية لتزويد تركيبهم الانفعالى بالوقود الذى يزيد الشر اضطرابا ، فإذا أقل خلاف يتجاوز حجمه الطبيعى وينقلب إلى فتنة تنتسب إلى الدين زورا وبهتانا .

أما من ارتفعوا بتهذيبهم عن طبقة العوام ، فقد ألفوا ضبط النفس ، وليس من السهل أن تتحول خلافاتهم إلى مثل هذه الفتنة . . .

وأقول من ارتقوا بتهذيبهم ، وأعنى ذلك ، ولا أخلط بينه وبين درجة التعليم الرسمى . فكم من متعلم رسمى هو خبير فى مهنته أو مادته ، ولكنه غير مستنير الفكر مهذب النفس ، بحيث يتحكم عقله فى مشاعره . ومثله خليق أن يكون فريسة للحاجز النفسى الذى يشحنه بالرؤى الظالمة للفريق الآخر . . .

وهاهنا تتضح أهمية التربية . وأنا من المعنيين بها على المستوى الفكرى لا المهنى ، ولـذا أتيح لى أن ألمس أنها بيت الداء فى معظم الآفات التى تصاب بها أى أمة ، لأنها هى التى تشكل البناء النفسى والفكرى والأنماط السلوكية للمواطن .

ومن الرزايا التى تنبع من سوء التربية ، بث الأنانية فى السلوك وبث الذاتية فى التفكير . وأعنى بالذاتية فى التفكير عدم الحرص على فهم الأمور على حقيقتها الواقعية ، وعلى فهم الأشياء والأفكار والمذاهب على ماهى عليه فى « جوانيتها » ، بل الانزلاق إلى فهم الأشياء بتصورات « برانية » تزيف لها الحقيقة التى توافق هوى المرء .

ومن أوائل عناصر ذاتية التفكير ، أن من يختلف عنا فهو حقيق بإثارة النفور والزراية أو العداء . وهو على الجملة الموقف المضاد للانفتاح الفكرى والنفسى . . . فيأتى التصور أو الفهم ملونا بهذه العدوانية أو التوجسية . . . فإذا بالناشىء يشب على تفكير ملون بمشاعره الذاتية التى يمكن أن توصف بأى وصف ماعدا « الإنصاف » و« النزاهة » .

ولنضرب مثلا بالأمهات اللائى يصببن كثيرا من الصفات السيئة والغريبة لما يخالفهن أو تروعهن غرابته فى آذان الأطفال ، فالغرابة حائل منيع دون قيام الذهن بتصنيف الموضوع الغريب طبقا للنوعيات أو الفئات

المعهـودة له ، والطبيعة تأبى الفراغ ، ومن ثم تنشط المخيلة لملء الفراغ بالأسـاطير، فإذا كان الموضوع الغريب مما يستهوى النفس بجماله مثلا، جاءت الأساطير حافلة بما هو مشرق وجميل ومضىء . وإذا كان الموضوع الغريب مما يصدم النفس ويثير هواجسها ، جاءت الأساطير حافلة بما هو قبيح وقمىء . . .

واختلاف العقيدة لا يثير غالبا لدى الجاهل ـ للوهلة الأولى ـ عوامل الميل والانبهار . . . ومن هنا تكون التخيلات التى تملأ فراغ الجهل مخيفة أو منفرة ، لأنها إسقاط للأحاسيس والمشاعر الدفينة . . التلقائية .

وهـذا الجـو الخـرافى الذى يعوض به الجهل نقصه ، يملأ الناشىء بالنفور ، على خلاف الجو النزيه القائم على المعرفة والاستنارة الموضوعية .

ومن الشائع لدى الجهلاء ـ وهم غير قليلين للأسف ـ أن يظنوا ذلك التقبيح التحقيرى للعقيدة المخالفة يبثونه فى نفوس صغارهم نوعا من الحماية لعقيدة الصغير حتى لا يتعرض إيمانه الغض للبلبلة إذا ما ترك الباب مفتوحا للمعرفة والبحث الموضوعى فى العقائد الأخرى .

ولكن هذه « الذاتية » المغرضة فى التفكير والتصور ، تؤدى إلى أوخم العواقب الفكرية والسلوكية معا ، فيشب الصغير وقد انطوى مهما تهذبت معاملته لأصحاب العقيدة المخالفة ـ على سوء ظن دفين بهم ، وأمنية كامنة لو لم يكونوا هكذا . وكثيرا ما تسمع من يقول : « إنه على غير ديننا ، ولكنه رجـل أمين ، أو مهذب ، أو ما إلى ذلك من الصفات » ، كأنما جاءت الصفات الحسنة استدراكا مضروبا على قاعدة كان من شأنها أن تؤدى إلى غير هذه المحاسن ، مما يقطع بأن هذه القاعدة لا توحى إلا بنوع من الزراية . .

وهذا مثل لنشأة الحاجز النفسى وتأصله فى غفلة من الآباء والأمهات .

وما من شيء يحول دون هذا الحاجز النفسى مثل المعرفة النزيهة ولكن الحاجز النفسى الذى يبدأ فى الصغر غالبا ما يحول دون تلك المعرفة . لأن ذلك الحاجز النفسى يرسخ دعائم الجهل بما يصد النفس عن طلب المعرفة التى تمحو هذا الجهل . . . فتشيع لدى الفرد العداوة لما يجهله والمرء عدو ما يجهل عادة والزراية له ، ومن ثم ينشأ القطاع العريض من التعصب . سواء فى هذا التعصب التمييز العنصرى أو اللونى أو الدينى . . .

●

وما أشبه هذا الذى يحدث لدى الناشيء من الحاجز النفسى . بما يوقعه الجهل فى نفوس الصغار من أن الغرفة المظلمة المغلقة الأبواب بها « البعبع » . . . وما البعبع الا إسقاط مجسد للمخاوف الكامنة فى النفس ، تلك المخاوف . وذلك البعبع بالتالى . . التى لا يمكن أن توجد إلا بسبب الجهل وظلماته الحافلة بالتهاويل . . .

فالحال قريب الشبه جدا ممن يرى أقواما يغدون ويخالطون غيرهم فى الأسواق والمحافل ومناشط الحياة والعمل والتعامل مثل غيرهم سواء بسواء ، وكل ما هناك أنهم يسكنون حجرة أو حجرات ضمن البيت الكبير يغلقونها عليهم إذا دخلوها، ولم يتح لغيرهم أن يدخلها . فينسج الخيال ما يعوض به نقص المعلومات الحقيقية عما فى داخل هذه الحجرة ، فيكون نسج الخيال فى هذه الحالة ممثلا للغرابة وسوء الظن . أى ممثلا للحاجز النفسى . . . أو ما يقابل فى عالم الصغار « البعبع » المرهوب المفزع .

ولو عكسنا وجهة النظر ، لوجدنا أن من يعتقد بوجود البعبع فى حجرة الفريق الآخر يأوى أيضا إذا خلا الى نفسه لحجرة يغلقها عليه ، فيراها الفريق الآخر حافلة بالغوامض والاسرار و « البعابع » التى يصورها له الجهل والحاجز النفسى .

ولا علاج لهذه الاحوال علاجا يقضى على خرافة « البعبع » هنا وهناك ، الا بتقويض كل اساس للحاجز النفسى هنا وهناك . ولا يكون ذلك الا بالقضاء على الجهل هنا وهناك . والحل فى هذه المسألة هو بعينه الحل فى علاج الطفل المرتعد فزعاً من « البعبع » فى الحجرة المغلقة : بفتح الابواب ، واضاءة جميع الانوار ، فيرى انه ليس فى هذه الحجرة شىء يخالف فى اساسياته ما فى حجرته هو وأهله .

أجل ! أضيئوا جميع الأنوار ، كى يرى كل طرف ما لدى الطرف الآخر على حقيقته بغير خفاء فتطمئن نفسه ، ولا يبقى ثم أساس يذكر للحاجز النفسى . فالكل يعبدون الاله الواحد ، وان اختلفت الاساليب ، الا ان المعنى واحد ، والمقصود واحد . ولكل فريق بعد هذا انتماؤه الى عقيدته التى لا يجهلها الآخرون ، ولا يسيئون فيها الرأى عن جهالة ، ولا تحف بها فى وهمهم الخرافة التحقيرية المزدرية . بدافع الكراهية العمياء .

بذلك يكون لكل فريق انتماؤه الإيمانى ، مع التواد الذى لا تعشش فى كنفه بغضاء ، ولا ينبت منه تعصب أعمى ، يجمع بين الجهل والتهور ، ويعبر عن سلوكيات عدوانية ، شأن كل كراهية .

ولكن الحاجز النفسى الذى نشأ بحكم فساد التربية النفسية والفكرية يقاوم اضاءة الأنوار ، ويحرص على عماية الجهل ، ويدافع عنها باستماتة ، فى الحالات « الحادة » من استفحال ذلك الحاجز النفسى ، ويأبى أن يصدق كل حديث صادق عن حقيقة الفريق الآخر . وفى هذا شاهد عظيم الدلالة على أن الحقيقة لا تقنع إلا الإنسان المخلص فى طلبها والمستعد لتلقيها فى نزاهة وخلو من الهوى والتحامل . أما من احتشدت نفسه بالاهواء المغرضة ، فالمعرفة النزيهة لا تجد عنده قبولا ، لأنه أشبه بمن يضع على عينيه عدسات لاصقة ملونة أو ملتوية السطح ، فلا يمكن ان يرى ما يوضع امام بصره - مهما قربته منه وجلوته له - الا ملونا أو ملتويا .

وذلك كاف كى يدلنا على انه لا جدوى من اضاءة جميع الانوار ، ما لم نصلح الأبصار والبصائر أولا ، وننفى عنها ما يزيغها ويضلها عن حقيقة المرئيات .

أجل ! إن إصلاح النفوس والعقول لإزالة الحاجز النفسى مسبق على الحملة ضد الجهل أو الأمية . . . كما أن اصلاح العيون مسبق على الاجتهاد فى فتح النوافذ واضاءة جميع الانوار .

« وقد تنكر العين ضوء الشمس من رمد » .

والرمد النفسى هو الذى نعنيه بالحاجز النفسى ، لأنه يبطل جدوى كل سعى لاضاءة الانوار ، ويجعل حملات التنوير والتعريف عملا عقيما لا يصيب اصحابه الا بالحسرة والاحباط . .

فالتحيز هو بيت الداء ، ولا جدوى من محاربة الجهل بالموضوعات ما لم ينتف التعصب والتحيز الذى تنحرف به التصورات وتزيغ التصديقات .

ومن شواهد ذلك ما مر بى من تجربة شخصية . فالذين أهلهم استعدادهم الفطرى للنزاهة أن يفهموا حملتى للتعريف والتنوير العقلى الموضوعى فى مجال الاسلاميات ، وأن يتبينوا بفطرتهم النقية أنها ليست عملية تحيز لعقيدة أنتمى إليها ، بعد أن ناديت فى كل كتبى أن انتمائى للعقيدة المسيحية بلا خفاء أو مواربة . ولكن غيرهم ممن تنطوى أعماقهم على التحيز لما ينتمون إليه من هذا الفريق أو ذاك ، ولا يتصورون موقفا يعلو على هذا التحيز أو يتخلص منه ، لذا ساورهم الظن أن وراء واجهة عدم التحيز الفكرى التى أعلنها للناس ، سريرة متحيزة للاسلام والمسلمين . . وكم مسنى من هذا ضيق وإعنات شديد !

وليس الضيق والاعنات لما ينزل بمشاعرى الشخصية فحسب ، فما كان اهون هذا ، بل الجانب الاكبر من هذا الضيق مصدره ما أشعرنى من

اننى أرمى بها أحاربه فيهم . أى اننى اتكلم لغة غريبة لا يفهمها من اخاطبهم ، واننى وقفت جهدى لقضية محكوم عليها بالعقم ، لأن العامة غير مستعدين لها . . .

وكلما سمعت نبأ فتنة دينية فى جزء من الوطن العربى انتابنى الاكتئاب ، وشعرت انى لبثت قرابة ربع قرن « أنفخ فى قربة مخرومة » .

ورحت ألتمس العلاج من هذا الاكتئاب ، وكان المعالج صديقا يمحضنى محبته ويشفق علىَّ ، فقال لى :

- أفهم شعورك . فأنت تحس احساس من طابت نفسه ان يحترق ليضىء ، ولكنه احترق فى حجرة مقفلة ، أو فى صحراء مقفرة ، فلم ينتفع بضوئه أحد ، فكأنك تحترق عبثا . ألم تحدثك نفسك انه آن لك أن تنفض يدك من الكتابة عن أمور المسلمين ؟

فقلت له :

- بل أنا أعد نفسى للكتابة عن عمر بن الخطاب ، ثم عن عثمان ، ثم عن . . .

ولم يدعنى أكمل ، بل صاح بى مشفقا :

- رويدك ! . . . أنت تعيب على عوام الذهن أنهم لا يفقهون موقفك الفكرى المبدئى . . . فلماذا لا تريد أنت أن تتعلم الدرس . .

- أى درس ؟

- درس عقم المضى فى هذا الطريق . . . وأنت كاتب روائى وشاعر ومترجم وفيلسوف ، فلماذا لا تنصرف بكليتك إلى هذه الامور التى لا يلحقك منها مضاضة

فابتسمت وقلت :

- على رسلك ! لم يغب عنى هذا الـدرس . وهو درس ظاهر لا يحتاج الى بصيرة كى تعيه . ولكنى وعيت إلى جانبه درسا اخر ، غير طاف على السطح !

- وماذاك ؟

- وعيت أن الداء وبيل ومزمن منذ قرون ! ووجدت أن ذلك يفرض علىّ وقـد ندبت نفسى لمقـاومتـه بعد أن وعيت أبعاده وأهواله أن أواصل الكفاح ، لا عن عناد ، أو حب استشهاد ، بل عن إدراك لما قيل فيما هو فرض عين ، وما هو فرض كفاية . . .

- وما فرض العين ؟

- إنه ذلك الواجب الذى إن لم تقم به أنت لم يكن من المتوقع أن ينبرى للنهـوض بأعبائه سواك . أما فرض الكفاية ، فهو الواجب الذى لا ينحصر فيك، بل يلزم أن يقوم به من « يكفون » لذلك، ومتى وجد العدد الكافى ممن ينهضون باعبائه لم يتعين عليك انت ان تشتغل به . ومناشطى الأخرى - بين الفلسفة وعلم النفس والقصة والشعر - فرض كفاية . اما موقفى من الاصـلاح النفسى والعقـلى لازالة الحاجز النفسى واضاءة جميع الانوار ، وقيام الوحدة الانسانية والقومية بين شقى الأمة ، فذلك يا صاحبى ما صح عندى أنه فرض عين ، فتلك مهمة قمت بها منفردا ، ومازلت منفردا بها ، فمن يدرك اخطارها وابعادها لا تواتيه الجسارة على الانبراء لها . فاذا نفضت يدى منها لم يحمل غيرى شعلتها . فمن اين لى الخلاص من هذا الواجب ؟

- ولكنه عمل قليل الجدوى . . .

- لأن الداء مستفحل ومتأصل وخفى عن الوعى ! وانما يحتاج المرضى الى الطبيب ، لا الاصحاء ! فكيف الآن تدعو الطبيب الذى يجد مقاومة من المـرضى ان يتخلى عنهم وينتقل الى حى ليس فيه وباء ؟ . . . كيف أتفرغ للفلسفة أو الشعر أو الرواية أو الترجمة ، حيث لا خطر ولا وباء ،

واترك ذلك الحاجز النفسى الصلد ؟ أفى استطاعتى ان احترم نفسى بعدها ؟ . . وما علىّ من الجدوى ، فليس هذا من شأنى ولا مسئوليتى . فكل مسئوليتى منحصرة فى بذل الجهد . « أدِّ الواجب ، ودعك مما يكون ! » .

- اجعل إذن هذا الشعار العقار الذى تقاوم به الاكتئاب ، كلما هزت نفسك أنباء فتنة دينية ، فى لبنان ، أو فى غير لبنان ، مما يقدم عليه السفهاء فى أى مكان . . .

- إذن ، لأمضين فى الكتابة عن عمر . . .

وهممت بالانصراف فإذا بصاحبى يقول :

- سؤال أخير : لماذا تكتب عن الاسلام أكثر مما كتبت عن المسيح ؟ لماذا مكافحة التعصب فى جانب واحد ؟

فتنهدت وأنا أقاوم نفاد صبرى وقلت :

- لأنى أومن بما نادى به السيد المسيح : قبل أن تخرج القذى من عين أخيك ، أخرج أولا « الخشبة » التى فى عينيك ! . . . وهذه واحدة ، . . .

- والأخرى ؟

- أن من أراد الاصلاح فليصلح أهله قبل أن يصلح سواهم من الناس ، ليتعقب أهله بالاصلاح مهما اشتد ، فهو مجلبة نفع لهم ، إذ يعلمهم الانصاف ، وهو مصلحة لهم قبل أن يكون مصلحة لمن ينصفهم . . . أليس كذلك ؟

- بلى ! الآن فهمت . . .

- وأرجو أن يكون غيرك أيضا قد فهموا . . . والآن دعنى أنصرف ، فإنى على موعد مع عمر . . . لحديث أرجو ألا يكون قد دار مثله بينه وبين أحد من قبل . . .

كتاب آخر عن عمر ؟

لماذا ؟

ومن حق أى قارىء عربى أن يتساءل :

- ولماذا يكتب نظمى لوقا كتابا عن عمر بن الخطاب ، وقد سبق إلى الكتابة عنه فى هذا العصر علمان شامخان من أعلام الفكر والأدب ، هما عباس العقاد وحسين هيكل ؟ وهل تركا قولا لقائل ؟

وهو سؤال له وجاهته . والاجابة عنه تقتضى نظرة هادئة إلى علاقة أى كاتب بالموضوع الذى يتناوله . ومجمل هذه العلاقة أنها علاقة فكر له منهج معين ، ونفس لها مزاج معين ومن ثم له رؤية معينة للموضوع . . .

ولقد كان ما يكتبه هيكل أقرب شىء إلى السيرة التى تتعقب الأحداث والأعمال بالرصد والتسجيل والتحليل ، وتنتهى إلى تقييم شامل متوازن .

وأما العقاد فلم يفارقه حس الشاعر ، وحماسة العاشق ، وهو يعمل فكره فى تصوير شخصية عمر وتفسيرها ، فلم يفارقنى الاحساس أننى أمام موكب ملكى رائع أقامه العقاد لحبيبه عمر ، وحشد له طاقته المذهلة فى المنطق والبلاغة وسحر البيان ، فجاءت عباراته أشبه بعربة مذهبة تجرها الجياد المطهمة ، ويحف بها الفرسان الدارعون الصناديد ! . . .

أفأكتب عن عمر سيرة أخرى ، أبارى بها الدكتور هيكل ؟ ليس هذا اتجاهى ، ولا أرب لى فيه . ولا حاجة إليه أيضا ، ففى السيرة العمرية التى كتبها الدكتور هيكل كفاية لا أحس حاجة معها إلى مزيد ، وليست الزيادة عليها ميسرة لمن شاء . . . فالصمت إذن أولى !

أفأكتب قصيدة نثرية أخرى فى تمجيد عمر بن الخطاب ، كتلك التى جاء بها العقاد فجاءت معجزة فى الضخامة والسحر والشعور الدافق المتقد ؟

واغوثاه ! من أين يأتى لى شىء كهذا لو أردته ! وهو شىء لا أرب لى فيه ، ولا هو من مقصدى على كل حال .

فماهو مرادى إذن من هذا الكتاب ؟

مرادى منه ، وبه ، أن يكون رؤيتى الخاصة لعمر بن الخطاب .

فماهى سمات هذه « الرؤية » !

إنها رؤية إنسانية محض ، مدنية محض . تتناول عمر بن الخطاب من حيث هو بشر يتمثل فيه مستوى رفيع من الصفات الانسانية تجعل منه مثلا رفيعا لكل من يتطلع إلى المثل الرفيعة فى السلوك والنهوض بالأعباء الجسام .

رؤية تنحصر فى تبين عمر الانسان الذى تعم فائدة التعرف إليه البشر جميعا . فهى ليست رؤية « دينية » يعنيها ماقد يرتفع بعمر بن الخطاب عن المستوى البشرى ، وماقد ينسب إليه من صفات ووسائل خارقة لا يتيسر الانصاف بها لكل انسان .

الكرامة فى هذه الرؤية هى كرامة « البطل » ، وتفوق سلوكه لا مصدر له إلا ذلك التكوين « البطولى » ، الذى لا يستمد مكانته من القدرات الممتنعة على سائر الناس ، بل من الاحتشاد الانسانى المحض للمستويات التى يلتزم بها من تلقاء نفسه ، وينذب لها نفسه قياما بحق النخوة والمروءة . ووسائله لتحقيقها هى ـ على الخصوص ـ وسائل انسانية متاحة لسائر الناس ، إن هم راضوا أنفسهم على تكاليف الأخذ بها . ولا ينفرد بوسائل اختص بها دون سواه . لأنه بذلك الانفراد بالوسائل والموارد لا يكون المثل ، ولا يكون الرجل ، بل يكون المعجزة !

وكتابى عن عمر « الرجل والمثل » الذى تصلح سيرته البطولية حجة على الناس ، واستنفارا لكوامن البطولة فيهم .

فليس لأحد أن يتوقع منى سيرة لعمر ، ولا قصيدة انبهار بعمر ، بل دراسة لسمات البطولة عموما من خلال صورة عمر ومواقفه ، وكيف وجهت فطرة البطولة فى ذلك البطل المطبوع مراحل حياته ، وكيف شكلت وكيفت أفعاله وتصرفاته .

« بطل مطبوع » هو على غرار ما نعنيه حين نقول عن فلان من الناس أنه « شاعر مطبوع » .

ولكنه أيضا صاحب مزاج نفسى خاص ، يمارس به بطولياته . وهنا يجد المتأمل المجال واسعا لتمييز ما يصلح أن يكون من تصرفاته « مثلا » للناس كافة ، لأنه ليس تعبيرا عن مزاج تفرد به عمر الرجل فحسب ، بل هو تعبير عن تجاوزه لذاته إلى النمط الموضوعى الذى يستوى فى الانتفاع به ، والاخلاد إليه ، سائر العقلاء ، على اختلاف دياناتهم وأمزجتهم النفسية .

عمر الرجل ، فرد له ذاتيته الخاصة كسائر الناس . أما عمر البطل فهو احتشاد لهمة ترتفع فوق الذاتية المحدودة لتجسيد مبدأ موضوعى يسمو فوق الاعتبارات الذاتية الخاصة .

فسمة الرجل ، أن يكون العمل معبرا عن ذاتيته ومزاجه الخاص وأحواله المعينة . .

أما سمة البطل ، فأن يتجاوز ذاتيته ومزاجه ، فيكون مثلا لكل بنى البشر ، تلغى فى مواجهته الحوائل والحواجز الذاتية والفئوية .

ومن هذه الرؤية التى تحدد سمات البطولة ، وتكوين البطل وطبيعته النفسية ، يجد القارىء فى هذه الصفحات نموذجا لها فى عمر بن الخطاب ، يفرق فى أعماله ومواقفه بين ما هو خاص لعمر الرجل ، وما يرتفع إلى ما فوق ذلك عن سلوك البطولة ، التى هى القدوة والمثل . .

بطل ولا قضية

معنى البطولة

جدير بصاحب الفكر المدقق أن يحدد المعنى أو المفهوم ، ويبين مواضع افتراقه عن المعانى التى تقاربه أو قد تختلط به إلى حد الالتباس .

فما هو مفهـوم البطولة ؟ و ما تخومها التى تنفصل على امتدادها عن المفهومات التى تقترب فيها أو تلتبس بها فى اذهان الناس ؟ مثل مفهوم القوة التى تصل إلى حد الجبروت ، أو مفهوم العبقرية .

يشيع على الألسنة الكلام عن البطولة فى أنواع الرياضة عند الكلام على البطولات العامة ، كما يشيع الكلام عن البطولة عندما يروع الناس ما يبديه شخص عن قوة التحمل والتجلد للمصاعب أو الأرزاء والمحن .

وملحـوظ فى هذه الاستعمالات أن البطل شخص يتميز بالقدرة الفائقة ، إذا كان من المبرزين فى الملاكمة أو لعب الكرة أو حلبات السباق . فالتفوق على الأقران والمنافسين يوحى بهذا المعنى للبطولة البدنية .

ولكن البطولة قد يطلقها الناس أيضا على غير ذى قوة بدنية خارقة ، بل قد يوصف بها النحيل الضعيف البنية ، إذا ثبت أمام المحن فلم تكسر له عودًا ولم تحطم له إرادة . . مع أن المتين البنية قد ينهار أمام هذه المحن نفسها لو أنها نزلت به . فالبطولة هنا تفوق فى الصفات والقدرات المعنوية .

وقد يوصف بالبطولة انسان لا حول له ولا طول ، لا لشىء إلا لأنه ثبت للغـواية والاغـراء اللذين لا يثبت أمامهما الاشداء من الرجال ذوى

البأس والحول والطول . يستوى فى هذا الاغراء الجنسى ، والاغراء المالى ، والاغـراء بالشهـرة ، أو التهـديد بسـوء السمعـة مع الاقتـدار على هذا التسوىء . والثبات لهذه المغريات أو التهديدات قدرة خارقة نادرة فى بنى الانسان . . . وهى قدرة خلقية .

واطلاق صفة البطولة ـ على الوجه الدارج على الألسنة ـ ملحوظ فيه ، أيا كان مجال هذه البطولة بالصورة التى بيناها ، أنها تلحق بصاحب التفوق فى قدرته على أمثاله ، أو على السواد الأعظم من الناس .

والأجدر بهذه الصفات أن تلحق بباب القوة أو شدة المراس أو الجبروت أو الصـلابـة ، لأنها أمـور تتفـرق فيهـا وجـوه التفوق بين بدنية ومعنوية وخلقية ، وقلما تجتمع لشخص واحد .

فإذا أخذنا التفوق فى اللياقة البدنية وممارساتها ، قد نجد الجبار الذى يوظف جبروته للسيطرة على الناس وركوب اكتافهم واذلال اعناقهم . فقوته هنـا وتفوقه فيها أدخل فى باب القوة البهيمية التى لا يضبطها ضابط من تورع أو ضمـير أو عقـل يحترم القيم التى لا ترد على خاطر من تستغرقه الشهوات وحب الذات وينصرف إلى تأكيد ذاته بما أوتيه من قوة .

فماذا ينقص الجبار العاتى ، كى يكون جديرا بصفة البطولة ؟

نترك هذا مؤقتا وننتقل إلى الضعيف البنية الموصوف على ألسنة الناس بالبطولة لأنه يثبت بارادته الخارقة للمحن والارزاء التى تزخر بها حياته الخاصة .

● هذا رجل قوى الارادة بصورة فائقة فيما يعجز عن الثبات له معظم الناس . ممن هم أقوى منه بنية أضعافا مضاعفة ، فلماذا لا يستحق مثل هذا الانسان اسم البطل ؟

ثم ذلك الانسان الذى يثبت أمام اغراء الثراء الفاحش ، والسلطان العـريض ، والجمال الصارخ ، وهو صفر اليدين من ذلك كله ، وشديد

الاحساس بالحاجة إليه ، فماهو بالبليد ولا الخامد الحس ، لماذا لا نطلق عليه كما يطلق عليه الناس صفة البطولة ؟

نقول ان هذه كلها وجوه من التفوق الخارق ما فيها مراء ، ولكن مفهوم التفوق لا يكفى وحده لقيام مفهوم البطولة ، بالمعنى الدقيق الذى نعنيه .

فالبطل الذى نعنيه انسان متفوق القدرة ، ولكن تفوقه ليس منحصرا فى مجاله الخاص ، شأن الثابت للمحن والثابت للاغراء أو الوعيد . فمجال البطولة عندنا هو المجال العام ، الذى يتصل بحياة الناس ويعمهم الانتفاع به .

وقد يقال أن الجبار العاتى يمارس جبروته لا فى مجال حياته الخاصة ، بل فى مجال حياة الناس العامة . وهذا صحيح فى الظاهر ، أما فى الواقع فممارسته لجبروته استغلال للحياة العامة ، وللناس عموما ، لحساب ذاته ، أو لحسابه الخاص كما يقولون ـ فهو يعيش على الناس ، ويستهلكهم ، ولا يعيش ـ كما ينبغى للبطل بمعنى الكلمة ـ للناس . انه يتفوق فى الأخذ ، أما البطل بالمعنى الذى نقصده فمتفوق وفائق فى العطاء ! . .

ولذا قد يكون للبطل الذى نعنيه جبروت العاتى ، ولكن بغير عتو ! فجبروته للناس وليس على الناس . وان كان جبروته على أحد ، فهو على ذاته الصغرى . لحساب ذاته العليا التى تتجرد من الذات الصغرى ، ومن شتى الصغائر ، لتكون مثلا مجسدا لقيمة أو قضية عليا ، ليس فيها شىء ذاتى أو خاص ، وإنما هى قيمة أو قضية موضوعية عامة ، تعلو على جميع الذوات أو الأشخاص ، وتعم جميع الذوات العليا التى تدين بهذه القيمة وتتغياها .

وفى هذا البطل صفات من تفوق فى قوة الارادة ، وفى الثبات أمام المغريات ، ولكنه بقوة ارادته وقوة خلقه ومناعة طبعه لا يوظف هذه الصفات الفائقة فى مجال شخصه ، بل فى المجال العام .

ففى البطل بهذا المعنى صفات التفوق التى تتفرق فى الأبطال بالمعنى الدارج على ألسنة الناس ، ولكن هذه الصفات فيه كالشمس المشعة بذاتها على كل ما حولها . وهؤلاء الأبطال الآخرون إنما هم أبطال على سبيل التجاوز أو المجاز ، وهم أشبه بالأحجار الثمينة التى لا تشع ضوءها من تلقاء نفسه ، بل تستعيره من سواها . فهم أقباس من البطولة . أما البطولة الحقة فهى ذلك المعدن النادر ندرة الشمس ، الذى يبهر الناس ويضىء ويجعل تفوقه فى خدمة قضاياهم أو قيمهم الكبرى .

وهو فى تفوقه لو لم يكن مطبوعا على « تجاوز ذاته » ، أى ذا طبيعة اشعاعية لا امتصاصية ، لكان تفوقه خسيس القدر ، منصرفا لخدمة ذاته المحدودة ، مسخرا الناس فى ذلك . . .

فالتفوق إذن ليس هو لباب معدن البطولة ، بل تلك الاشعاعية ، أو تجاوز الذات ، أو النخوة والشهامة والتجرد والنزاهة والترفع عن الانتفاعية أو النفعية .

فصغار الأبطال نفعيون مستفيدون من تفوقهم ، أو يقتصر تفوقهم على مجالات حياتهم الخاصة .

أما الأبطال الحقيقيون فلانفعية فيهم ، ولا قصور ذاتى ، ولا حدود لعطائهم . . .

وننتقل إلى مفهوم آخر قد يلتبس لدى الناس بمفهوم البطولة ، وأعنى به مفهوم العبقرية . . .

قد يكون العبقرى بطلا ، وقد لا يكون .

فالعبقرية إذن خلاف البطولة . . .

وأول ما يتبادر للذهن فى تعيين التخوم الفاصلة بين المفهومين، إن البطل لا يكون بطلا إلا إذا كان مجال بطولته وتصديه للتفوق هو مجال العمل والمواقف العملية والسلوك العملى .

والعبقرى قد يكون أخا عمل ، وقد يكون أخا فكر لا علاقة له بالعمل من قريب أو بعيد . وفى هذه الحالة لا يكون العبقرى بطلا بأى معنى من المعانى . . .

ويحسن بنا هاهنا أن نضرب أمثلة لتوضيح التخوم الفاصلة بين المفهومين ، من بين ماوعاه تاريخ البشرية . . .

هذا مثلا معلمنا سقراط ، عبقرى الفكر ورائد من أعظم رواد الحكمة النظرية والعملية . ولكنه لا يتجلى بطلا إلا عندما حوكم ، وخيروه بين حياته وبين الاقلاع عن تبصير الناس وايقاظ عقولهم ، فأبى التخلى عما رآه واجبه الأسمى ، وواجه الحكم عليه بالاعدام مرفوع الهامة موفور الكرامة . ولما دبر له بعض المخلصين من حوارييه طريقة للفرار من سجنه ، ومن أثينا إلى حياة آمنة فى المنفى الذى يختاره ، أبى أن يشترى حياته بهذا الثمن ، الذى ينطوى على هدم سلطان القانون !

هاهنا موقف بطولة ارتقى إليه عبقرى الفلسفة الاغريقية ، فكان ببطولته مثلا أعلى لشجاعة الايمان !

وفى مقابل سقراط العبقرى البطل ، نرى عبقريا من أبعد عباقرة البشرية أثرا فى تطور العلم ، ألا وهو جاليليو ، الذى قلب الرؤية الانسانية للفيزياء وقوانينها ، ولحقائق الفلك . . . ولكننا لا نستطيع أن نقول عن هذا العبقرى العظيم أنه بطل .

فحينما سيق للمحاكمة الدينية أمام مجلس بابوى وتهددته المخاطر التى قد تصل إلى الاحراق حيا ، أو التعرض للتعذيب البشع ، ما لم يتراجع عما أعلنه من دوران الأرض حول الشمس ، تراجع وأعلن أن الأرض ثابتة ، والشمس هى التى تدور من حولها ، طبقا للقول السائد يومئذ ، بتأييد من الكنيسة . حتى ليعد كافرا من لم يقل به ، كأنه حقيقة من حقائق الايمان !

وكبار الفلاسفة والمفكرين عباقرة ، ولكن مجالهم هو النظر العقلى أو

العلمى الخالص . أما المجال العملى فليس لهم به شأن ، بل لعلهم يتحرون البعد عنه فى إحجام أشبه بالخوف النفسى أو « الرهاب » .

وهذا عبقرى من عباقرة الفلسفة ، هو ديكرت الملقب بأبى الفلسفة الحديثة ، يحرص على الحياة منفيا باختياره عن وطنه فرنسا . فأقام فى هولندة حيث تباح حرية النشر بغير عراقيل أو وصايا أو رقابة . وكان شعاره « عاش سعيدا من أحسن التوارى عن الناس » . وكان يمعن فى « التقية » ، ويجشم نفسه الكثير من المشاق لاقناع رجال الدين بأنه لا يخرج على « الخط » الذى رسموه للناس . . .

بل إنه ـ فى ظنى ـ كان هذا الاحجام عن التصدى للتبعات العملية ولو بطريق غير مباشر ، هو الذى جعله لا يتبع مذهبه النظرى بنتيجته أو ثمرته الطبيعية ، وهى مذهبه فى الأخلاق .

فهو عبقرى بغير بطولة .

وعلى النقيض من هذا نجد فى عصرنا الحاضر عبقريا من أبرز فلاسفة القرن العشرين ، هو برترند راسل .

وراسل سليل أسرة من أعرق السلالات الانجليزية . رفض أن يرث لقب اللوردية عندما آل إليه عن أجداده ، ورفض أيضا أن يرث الثروة الطائلة ، لأنه يؤمن بأن الميراث ظلم اجتماعى فيه إهدار للتكافؤ فى الفرصة . وبأنه ليس يحق لانسان أن يتمتع إلا بثمرات عمله وجهده . وكان يومئذ مدرسا فى جامعة كمبريدج ومن أبرز الفلاسفة وأفذاذ الرياضة ، وله اليد الطولى فى ازدهار المنطق الرياضى . وذلك موقف بطولى ولامراء ، لأنه لا يخص بأثره نفسه ، بل هو « بيان عملى » علنى بعيد الأثر فى الناس لنصرة مبدأ يخص النظم السائدة القائمة على الفوارق الموروثة بين البشر .

ثم أعلنت الحرب العالمية الأولى . ولم يكن معمولا فى إنجلترا ـ وهى يومئذ أكبر إمبراطورية لا تغرب عنها الشمس ـ بنظام « التجنيد الاجبارى

العام » . بل كان كل شاب ورجل فى بريطانيا يرى من واجبه أن يتطوع فور النفخ فى النفير العام ، كى يكون تحت تصرف القيادة العسكرية لحماية الامبراطورية .

وطبيعى أن طلبة الجامعات العريقة كانوا أول من ينبرى لتلبية نداء الوطن . وعلى هذا الانبراء يتوقف مصير القتال . فإذا بالأستاذ راسل الشاب البعيد الصيت والصوت بين مواطنيه يدعو شباب إنجلترا إلى النكوص عن التطوع للقتال ، تاركين وطنهم يمنى بالهزيمة ، لأن هذه الحرب إنما هى نزاع بين القوى الكبرى على اقتسام المستعمرات وانتهابها . ولذا فكل إنجليزى محب لوطنه حقا ـ يجب عليه ألا يشارك فى جريمة استمرار الاستعمار ، بل يجب أن يعمل جهده كى يحيق بهذه الإمبراطورية الظالمة للانسانية أعجل البوار ، لتنال الشعوب المقهورة استقلالها ، لأنه حقها الطبيعى . .

وطبيعى أن من يقف هذا الموقف فى وقت الحرب فى بلاد أخرى غير إنجلترا يتعرض للقتل ، إما بيد الجلاد بعد محاكمة عسكرية . وإما بيد شاب وطنى متهوس . ولكن عراقة الديمقراطية فى بريطانيا حالت دون إهدار دمه ، وفصلته الجامعة . . . أما غضب الرأى العام ـ وهو فى العادة ، ولا سيما فى حالات الحروب ، غير مستنير ـ فلم تكن له حدود .

وبهذا الموقف العملى الصارخ كان راسل العبقرى بطلا لا شك فى بطولته ، إعلاء لقضية تعلو على المصالح الذاتية .

ولعل هذه الأمثلة كافية لبيان الفرق بين العبقرية والبطولة . أجل قد يجتمعان . ولكنهما ليسا شيئا واحدا على الدوام ، وليسا بالمتلازمين بالضرورة فى جميع الأحوال .

●●●

وننتقل إلى القوة والجبروت . والفرق بينهما وبين البطولة التى نعنيها . فنقول أن الجبار إذا جعل قوته وجبروته فى خدمة غاياته الخاصة ، لم يكن بطلا مهما قهر الأقران ولم يقف له أحد فى عبقرية قدراته الحربية أو التسلطية .

أفيذكر التاريخ عبقريا فى الحرب ألمع من نابليون ؟ أو يوليوس قيصر ؟ أنسمى أمثال هذين ابطالا ؟ لقد كانت عبقريتهم وقدراتهم الخارقة فى خدمة مطامعهم ، لا فى خدمة قضية تتجاوز هذه المطامع الخاصة . فبينهم إذن وبين البطولة سد منيع .

ولكن عبقريا فى قيادة المعارك وحبك الخطط فى مستوى لا يقل عن هذين ، وهو القائد بليزاريوس ، من قواد الدولة البيزنطية ، أنقذ الدولة ، وأنقذ روما نفسها من البرابرة أكثر من مرة . وبعد كل مرة من هذه المرات كان الامبراطور العاجز الجاهل اللئيم يلقى به فى غيابات السجون ، إلى أن تدلهم الخطوب ويبدو واضحا أنه لا مفر من انحلال الدولة وضياعها أمام أعدائها هنا أو هناك ، فيخرجه الامبراطور من سجنه ويوليه القيادة . ويعلم بليزاريوس أنه سيغدر به بعد أن ينتهى مأربه منه ، ولكنه يأبى أن يحول السلطة التى فى يده إلى خنجر فى صدر الامبراطور بشق عصا الطاعة عليه بعد أن يحرز النصر الذى كان ميئوسا منه ، وكأنه حلم من الأحلام ويقول لمن يراوده على ذلك من خلصائه :

- سيفى فى يدى أداة لخدمة الدولة والإيمان ، لا لخدمة مآربى أو حماية مكاسبى ، أو صيانة حياتى . . .

ها هو بطل غير نهاز للفرص ، ولا راكب للموجة ، إنما هو حامى قضية أو مبدأ ، حيث يعجز غيره عن حمايته ، بل حيث يطيعه سواه فينقذه هو فهو «يغشى الوغى ويعف عند المغنم» . وليس يغشى الوغى فحسب ، بل يقلب موازين الوغى من الهزيمة الماحقة إلى النصر الباهر المؤزر ، وهو يتوقع فى كل مرة جزاء سنمار . . .

ومن شاء فليقرأ كتاب « روبرت جريفز » عنه ، ليجد مثلا رائعا هو العجب العجاب فى عظمة البطولة التى تتجه بالعبقرية إلى نقيض مسار أمثاله من العباقرة طلاب المغانم . . .

وهذه الخاصة الخلقية ، التى تنكر الذات فى سبيل القيمة العليا أو القضية الكبرى ، وتندفع لنجدتها وإنقاذها فى أوقات الخطر والمحنة ، ثم تعف عن الافادة من بطولتها ، هى لباب اللباب من جوهر البطولة . لأنها هى التى ترتفع بقدرة البطل الخارقة إلى مستوى البطولة ولا تتركها تنحط إلى درك السباع التى كل همها الظفر بفريسة ! .

هذه الخاصة الخلقية هى التى جعلت صاحب قوة روحية خارقة مثل ذلك القزم الهزيل غاندى يتحول الى بطل يهزم اكبر إمبراطورية عرفها التاريخ ، ويظفر للهند باستقلالها ، ثم يرفض مقاليد الحكم التى سعت إليه .

هذه الخاصة الخلقية هى التى بدونها يتحول البطل ذو القدرات العملية الفائقة إلى بلطجى أو أفاق ، قد يستطيل سلطانه ويعلو بالمقياس الرسمى مكانه ، ولكنه فى النهاية وغد يلبس التاج أو يجر الطيلسان . وأمثال هؤلاء « الأوغاد » هم « أبطال مغلوبون » خلقيا ، بحيث لو حلت هذه الخاصة الخلقية بنخوتها محل أنانيتهم لصاروا ابطالا . ولو حلت الانانية والذاتية محل نخوة الابطال الخلقية لصاروا أوغادا .

فما هو الفارق الحاسم من حيث التكوين بين « البطل » و « الوغد » - وما أكثر الأوغاد الذين يحفل بهم تاريخ البشر ! ؟

الفارق الحاسم فى التكوين أن البطل المطبوع ، كالشاعر المطبوع ، مطبوع على الولاء والانتماء لمعنى أو قيمة تتجاوز ذاته ومآربها الخاصة . أما من ليس فيه هذا الميل الطبيعى للولاء والانتماء - أيا كانت قدراته - فهو

وغد ، ومشروع سفاح يتربص الفرصة كى يغدو قاطع طريق رئيس
عصابة ، أو طاغية تنفخ له الابواق فى المحافل والمواكب !

ولكن الشعور العميق بالولاء والانتماء لا يكفى وحده لا طل ،
وان كان - كما رأينا - لا وجود للبطولة بدون هذا الشعور .

فما اكثر الشاعرين بالولاء والانتماء لقيمة أو معنى يعلو اتهم ،
ولكنهم عندما تدلهم الخطوب وتحيق المحن بهذه القيمة أ المعنى
لا يجدون الحمية الكافية كى يهبوا لحمايته ونصرته ، ولو مات ه . اما
البطل فهو الذى يشعر بهذه الحمية تأكله ألسنة لهيبها من فيندفع
للنجدة والفداء إن لزم الفداء . أما الآخرون فقد تعو القدرة ،
أو الحول، أو الحيلة، فيكتفون بالعاطفة دون العمل. وقد ي ن إيمانهم
ليدفعوا الخطر عن أنفسهم على سبيل التقية ، وينكرون بألس ا تنطوى
عليه سرائرهم . . اما البطل فهيهات ! انه يتصدى ويتحدى

فالقدرة ، والولاء للقيمة التى تعلو فوق نوازع الذات الحمية ،
والجهاد الصادق عند اشتداد البأس ، هى عناصر البطولة ا عنيها .

والبطل بهذه الخصيصة فيه يصبح مضرب المثل ، لأنه يتطلع كل
كريم النفس الى الاقتداء به . ولكن البطل فى الوقت نفسه من الناس
له خصائص مزاجية تميز طبعه عن سواه من البشر . وهو لا ق طبعه فى
اعمال البطولة ، بل يسخره لهذه الأعمال ، وقد يكون طبعه وراء تفوقه
وتوفيقه واتيانه بالاعاجيب .

إن طبعه الخاص هو « الأداة » التى ينفذ بها أعماله ح يكون جهادا
بطوليا يعلو به فوق ذاته لنصرة القيمة التى يدين بالولاء لها نتماء إليها .
ولكن ليست كل تصرفات البطل بطولية من هذا القبيل قد يجنح إلى
ارضاء طبعه فى عمل من الأعمال ، بحيث لا يعلو به فو اته ومطالبها

وميولها الخاصة . هنا لا يصلح هذا المسلك أن يكون المثل بل هو مسلك الرجل . أى مسلك الفرد المعين ذى الطبع المعين . ولا يكون حينئذ من شواهد البطولة وملامحها . . .

وعمر بن الخطاب كان رجلا ذا طبع متميز ، وكان بطلا مطبوعا ، وسنجد فى الكثير من أعماله ما هو بطولى ولا مراء . لكن حذار أن يجعلنا هذا نفتن به ، فنخال كل أعماله بطوليات . . . بل سنجد منها ولا شك ما مصدره طبع الرجل ، لا شيمة البطل ، أو مضرب المثل . . .

وها قد آن لنا أن نقتفى لمحات البطولة وبوارقها فى عمر ، وأن نرد ما ليس كذلك إلى مصدره من طبع عمر الرجل ، لا عمر المثل .

عملاق جاهلى من بنى عدىّ

أى الفتيان كان عمر بن الخطاب ؟

أى فتى يشترك فى تحديد شخصيته تكوينان ، أو تأثيران : أحدهما تكوينه الجسدى وما ركب فيه من قدرات وميول فطرية ، والآخر تكوينه البيئى ، وما أثرت به ظروفه الاجتماعية فى تشكيل هذه الطينة الفطرية ، بتقوية جانب منها . وكف جانب آخر أو مصادرته أو قمعه بعض الشىء أو كل الشىء ، فيتمحض هذا التفاعل بين ما هو فطرى وماهو مكتسب عن كيان محدد السمات .

ونبدأ بالخصائص التى تلتصق بذاته وتنبع من تكوينه الجسدى وميوله ومزاجه الفطريين أساسا ، فإذا نحن أمام فتى مفرط الطول ، فاره البدن ، قوى البنية قوة تفوق المألوف وتلفت النظر كما يلفته طوله البائن ، حتى قيل أنه كان يمشى بين أقرانه ، فكأنه راكب وهم مشاة ! وفيه عنف وخشونة واندفاع إلى الغضب ، وسرعة بديهة ، ونفاذ فراسة . ولطول ساقيه وقوته الحيوية والعصبية كان واسع الخطو . لا يلاحقه السائرون معه ، فلا تكون لهم حيلة إلا السير فى أثره ، كأنهم فى ركابه .

والآن نسأل عن البيئة التى شب فيها هذا الفتى العملاق الغضوب القوى البأس ، وإلى أى حد شاركت فى تنمية هذه العناصر من تكوينه ، وإلى أى حد كفت بعضها أو عدلت من مساره ، حتى صارت له أنماط سلوكية مستقرة لاصقة بشخصيته ؟

إنه فتى عربى قرشى . نشأ فى مكة ، موطن قريش ، التى كانت تضرب لها أكباد الإبل من شتى أنحاء الجزيرة ، فى مواسم الحج والتجارة .

ولكن قريشا فى ذلك العهد كانت بطونا وعشائر متباينة ليست سواسية فى القوة والجاه والشرف والثراء . فمن أى البطون كان عمر ؟

من بنى عدى بن كعب !

وبنو عدى من البطون ذات المكانة والسمعة فى قريش ، ولكنهم لا يتولون شيئا من المناصب الكبرى فى القبيلة الأم . فقد استأثر بهذه المناصب من السقاية والسدانة واللواء وما إلى ذلك بنو هاشم ، وبنو أمية ، وبنو مخزوم . ثم هم لا يملكون ما يعوضهم عن المناصب العليا ثروة طائلة . . . ولكنهم مع هذا من ذوى الوجاهة ، فى الصف الثانى إن جاز هذا التعبير الحديث . . .

والعهد فى القبائل - ولا سيما زمن الجاهلية - أن تتنافس البطون والعشائر داخل القبيلة الواحدة تنافسا عنيفا ضاريا . فمالبثت عشيرة بنى عدى - فى زمن والد عمر بن الخطاب - أن أجبرت على الجلاء عن منازلها التى كانت تحتل موقعا ممتازا بين أرباض مكة ، والنزوح إلى موضع بعيد عن الأماكن المرموقة ، ليقيموا فى جوار بنى سهم . وبذلك هبطت مكانتهم فوق هبوطها ، بسبب قلة عددهم وقلة أموالهم . . . ولم يبق لهم من الوجاهة إلا ظل محتد قديم ونسب عريق ، وليست لهم عدة بين العشائر والبطون إلا الاعتداد بالكرامة التى يتشبثون بها رغم رقة الحال ، فيزيد ذلك من حساسيتهم وشعورهم بالمضاضة والغبن والبخس .

ومن شأن هذه المشاعر أن تؤجج فى أصحابها حدة الطبع ، والأنفة ، والحمية . ولكن قلة ما تحت يدهم من الحول والطول والعدد والعتاد يجنح بهم إلى التحامل على النفس ، وإيثار صيانة المكانة المهددة ما وسعهم ذلك بالوقار والحكمة والرزانة .

ولـذا نجد بنى عدى يندبهم قومهم من قريش لمجالس التحكيم ، ووفود المفاوضة ، أو « السفارة » ، وهى مهام تضفى عليهم ما يعوضهم عن الحرمان من المناصب الكبرى فى الدين والحرب والاقتصاد .

مكـانـة فى الصف الثـانى كما قلنـا ، ولكن اصحـابهـا يقبلونها على مضض . ويرحب أى فرد منهم بالمجال الذى يتيح له التبريز بكفاءته أو قدراته الشخصية ما وجد الى ذلك سبيلا ، ليخترق حاجز الفاقة والخمول النسبى الذى ضربته المنافسات القبلية على رهطه ، ولينجو من ذلك التوتر الحاد بين الكبرياء والبخس .

والآن نسأل : ماذا يكون من تفاعل تكوين عمر البدنى والنفسى ، مع هذه البيئة الاجتماعية والنفسية ؟

الفتى عملاق فاره خارق القوة . وهذه كلها عناصر تجعل احساسه مضاعفا . بوطأة التوتر بين الكبرياء والبخس . فلا عجب أن يجنح تكوينه الخارق للعادة هذا الى ان يجد متنفسا لهذا التوتر الذى يضغط على نفسه .

بعض هذا المتنفس يتيحـه له المجتمع القرشى الجاهلى ، وهو مهام السفارة والتحكيم . ولكنه لا يتيحه له بصفة خاصة ، بل لأى فتى فى مثل نسبـه من بنى عدى . ومن الـطبيعى وهـو متنفس عام غير خاص أنـه لا يرضى كل الارضاء فتى شديد التفرد فى صفاته مثل عمر .

ومن ثَمَّ راح عمر ينشد لنفسه المتنفس الفردى الذى لا يتاح لأى فرد آخر قومه ، وهو حلبات المصارعة ومبارياتها . فغدا مصارعا مرموقا متفوقا ، لا يثبت له خصم . .

وها هنا يحسن أن نقف قليلا عند هذا التفوق الخارق فى القوة البدنية . الذى انصرف إلى حلبات المصارعة .

فلو كان صاحب هذه القوة الخارقة التى لا يقف امامها أحد خاليا من الفطرة الخلقية ، لسلك المسلك الذى يغرى الكثيرين من اقوياء البنية ،

فغدا معتديا يستثمر قوته الخارقة فى الارهاب وابتزاز الاتاوات ، أو لغدا قاطع طريق مثل كثيرين من صعاليك العرب . اى لغدا « وغدا » ولكنه لم يمارس قوته الا فى مباريات المصارعة العلنية التى يشهدها الناس ، وليس فيها أى لون من ألوان الغيلة أو الغدر أو الاستغلال الشخصى الرخيص . .

ما كان ايسر أن يكون عمر وغدا اذن ، لولا أنه لم يكن بطبعه وغدا . ومعنى هذا انه كان ذا طبع يأبى له هذا الابتذال الخلقى ، مع ما فيه من اغراء مادى ونفسى لذوى البأس الخارق . فلابد أن تكوينه الحيوى الخارق لم يكن مصدرا للطاقة الحيوانية الجامحة فحسب ، بل كان الى جوار هذه الطاقة ما يحكمها ويحول دون تدفقها فى تلك المسارات المبتذلة ، وهى مسارات طبيعية جدا الا لدى من لديه قوى داخلية ايجابية تقاوم اغراءها الشديد .

ومن هاهنا نضع يدنا على « الفطرة الخلقية » التى فى تكوين عمر بن الخطاب الفتى الجاهلى القرشى العملاق . وهى فطرة تأنف لصاحبها ان يبتذل جبروته أو يتاجر به أو يفتات . أو أن يستغله فيما لا يليق بالفتى الكريم الاحساب والانساب .

ومن طبيعة هذه « الفطرة الخلقية » ان يكون لها انتماء وولاء لقيمة عليا تتجاوز الذات ، اى تعلو بسلوك صاحبها عن الانصراف كل الانصراف الى لذاته ونوازعه الذاتية الحيوية ، التى لها نظائر عند سائر الحيوان ، بل تجعل له حدودا لا يتعداها ، ولاء لهذه القيمة العليا .

ومادام الامر كذلك ، فقد حق لنا أن نسأل :

- وماذا عسى أن تكون هذه القيمة العليا فى الجاهلية ؟

لا مذاهب فلسفية . ولا ديانة سماوية . فأقصى قيمة عليا متاحة للفتى القرشى الجاهلى هى مجموعة تقاليد القبيلة التى تقوم عليها مكانتها

بين القبائل ، من عبادتها أو اصنامها ، وشعائرها ، والاخلاق أو الانماط السلوكية الموروثة ، التى بها تزهو وتتباهى وتفاخر القبائل .

وإذا أردت للفتى الجاهلى عموما نمطا مرموقا لم نجد صورة أوضح ولا أقرب مما جاء فى معلقة طرفة :

ولولا ثلاث هن من عيشة الفتى
وجدّك لم أحفل متى قام عودى !
ومنهن سبقى العاذلات بشربة
كميت متى ما تعل بالماء تزبد
وكرى اذا نادى المضاف محنبا
كسيد الغضى نبهته المتورد
وتقصير يوم الدجن ، والدجن معجب
ببهكنة تحت الطراف المعمد !

ولا يروعنك هذا الشعر الجاهلى أيها القارىء الكريم ! فما يقوله طرفة أنه لا يأسى على الموت لولا ثلاثة أمور هن كل ما يعلق الفتى الكريم بالحياة : وهى معاقرة الخمر الجيدة ، والكر والفر لنصرة الجار والمستغيث به ، وتقصير النهار بمضاجعة النساء .

الخمر والحرب والجنس ! هذا هو ما تحلو به الحياة ويغلو قدرها . ويحيط بهذه العناصر الثلاثة اطار نفسى ملازم لهذه « العيشة » الجاهلية ، قوامه العنجهية والاسراف فى ارضاء الاهواء وتأكيد الذات وتدليلها .

ولم يكن زمان فتوة عمر وشبابه زمان حرب وكر وفر ، فلم تكن هناك إذن قضية عليا يوجه إليها عمر طبعه المنتمى فى ساحات النضال . فلم تبق أمامه إذا إلا المتنفسات المتاحة فى مجال السلم ، وهى الاسراف فى الخمر . أو الاغراق فى اتيان النساء بالاكثار من الزواج وكلاهما مصرف قوى لطاقة

العملاق الجارفة ، فهى أيضا كالمصارعة مباريات فى الشراب ومصاحبة الغوانى والتنافس عليهن .

هو اذن بطل مطبوع . ولكنه لا يجد القضية التى تتجلى فيها روح البطولة ، من الولاء ونصرة القيمة العليا . فذلك الفتى الجاهلى - فى زمن السلم والأمن - يشعر أن شرف القبيلة مصان لا يتهدده خطر من أى نوع . فالقبائل كلها تبجل قريشا . وهو لا يعرف قيمة أعلى من شرف القبيلة يكون لها ولاؤه وانتماؤه ، ويمارس فى إعلائها روح بطولته .

وان مافى جسمه من فراهة ، ومافى تكوينه الدموى النارى من جموح ، ليجد راحة فى تلك المباذل من الخمر والنساء . ونحن نعلم أنه باعترافه كان يحب الخمر على الأقل . وكأنه يتحدى الأقران وينازلهم فى هذا الميدان ، مثلما ينازلهم فى حلبة المصارعة ، أو مضمار سباق الخيل .

ويجب أن تتنبه هنا إلى أن سمات الطبع والتكوين والميول عناصر فى شخصية الرجل ، وأنه فيما بعد ، وقد حرم الاسلام الموبقات .

● نجده أقلع عن الخمر لأنه لم يعد من ذلك مفر ، وأما المرأة ، فلا رهبانية فى الاسلام . الزواج إذن مباح ، والتعدد المحدود اذن مباح . ومن الطبيعى ان تظل الرغبة فى النساء ملازمة لعمر الرجل بعد اسلامه ، ب حدود الشرع . فالايمان لا يغير الرغبة أو الميل الطبيعى فى تكوين الرجل ، بل كان كل ماهنالك انه يضع له التخوم التى لا يتجاوزها فى ممارسة هذه الرغبة أو الميل الطبيعى .

●●●

ويجدر بنا ألا نختتم هذا الفصل قبل الإشارة إلى ملامح أخرى من شخصية عمر . فهو إلى جانب ماتقدم شديد الاعتداد بنفسه ، مع يقظة فى الحس والذهن تضارع فراهة بدنه ، ومع فراسة صائبة تتجاوز طاقة المحيطين به كما تتجاوز خطوته الواسعة خطواتهم .

واعتداده بنفسه ، وبرجولته ، مقترن أيضا بأنه لا يعتد كثيرا بالنساء وان رغب فيهن . فهن فى احساسه « أدوات » أو « دمى » أو « وسائل » قد تكون لاذة ، وقد تكون نافعة ، وقد تكون إليها حاجة ، ولكنها ليست ذات بال ، ولا يعتد لها برأى ، بل لا تسمع لها كلمة . مخلوقات هن فى نظره من الدرجة الثانية ....

ولم يكن عمر فى هذا شذوذا خارجا عن المألوف بين رجال زمنه ، ولا كان ذلك علامة على قصور أو جمود فى التصور والتفكير . فهذا هو « المعلم الأول » أرسطو لا يجعل للمرأة ـ سامحه الله ـ أكثر مما جعل لها الرجال فى الجاهلية عموما ، ولا سيما عمر .

وتكوين عمر الرجل لا يسمح له أن يكون « عاشقا » متيما هائما . فهو لاعتداده بنفسه يستخدم المرأة ، ولكنه لا يترك لها زمام نفسه ، ومقاليد لبه . ولكنه قادر على الود ، لمن يودهم ويقدرهم من الرجال ، إلا أنه ود من يملك مشاعره ورشده وأحكامه تمام الامتلاك ، فليس لانسان مهما أحبه عمر أن ينسيه يقظة ذهنه وصدقه ونزاهته فى وزن الأمور .

ومن كان هذا شأنه لا يميل به الود ، ولا يجنح به البغض إلى نسيان الحكم الصائب . فهو يضع عقله ورأيه فوق من يحب ومن يكره . وهذه بذرة أخرى للفطرة الخلقية التى تعصم من خداع النفس أو انسياقها مع الأهواء .

انه المصارع المطبوع ، والبطل المطبوع ، الذى لا يسمح له تكوينه أن يغلبه أحد ، بقوة البدن ، أو قوة النفوذ العاطفى . فهو دائما البطل الذى يملك فى يده جميع الأزِمَّة ، وله الكلمة العليا ، ولا يرخى زمامه لأحد . . .

ومن ثم استقلاله العقلى ، الذى هو سمة لا يمكن أن يخلو منها رجل شديد الاعتداد بتفرده ، يأبى أن يخدعه مخادع ، فعقله النافذ الناقد دائم اليقظة ، حتى لا يغلبه قاهر فى نزال قوة بدن ، أو نفاذ فطنة .

وسنلحظ فيه هذه السمات ، وآثارها ، عندما يتاح لفطرة البطولة فيه أن تجد مجالها الطبيعى .

ولكننا سنجد أيضا من سمات طبعه أنه شديد الحمية والغيرة ، والغيرة من طباع ذوى الحدة والحمية واتقاد الطبع والاعتداد بالنفس . إذ يلحق بالاعتداد بالنفس حماية مافى الحوزة ، واشرف مافى الحوزة العرض والسمعة .

ومع حدة الطبع توجد لدى القوى الخارق القوة غلظة وصراحة لا تعرف المداراة ، لأنه لا يجد أمامه أحدا يحوجه إلى تكلف المداراة .

ولكن فى مقابل هذا أيضا صفة نابعة من فطرته الخلقية ، هى محاسبة النفس ، حيث لا يجرؤ أحد على محاسبته . وقد رأينا أن الفطرة الخلقية هى « الشعرة » التى تفرق بين البطل والوغد . وهذه الفطرة الخلقية هى التى تقوم بالمراقبة و « النقد الذاتى » ، لدى ذلك الرجل الذى لا يجسر على مساءلته وتحدى جبروته وعنجهيته أحد . . .

الفجـــر الكاذب !

كان عمر اذن بطلا بلا قضية ، مصارعاً جبار القوة شديد الولع بالخمر . . فلم تكن أمامه قيمة أعلى من هيبة القبيلة وشرفها ، والقبيلة لم تكن فى خطر يتهددها . وكل ما هناك ان افرادا من العرب ، ومن قريش ، بل وبعضهم من بنى عدىّ - مثل ابن عمه زيد بن عمرو بن نفيل ، عافت نفوسهم عبادة الأوثان . . . فالتمسوا عبادة إله واحد ، وتنصرَّ نفرٌ منهم واعتزلوا حياة القبيلة نجاة بأنفسهم من هذا الذى أحسوه تعفنا واسفافا وضلالا .

وكان هؤلاء فى نظر القبيلة - وفى نظر عمر بن الخطاب من باب أولى - خارجين على القاموس الموروث والشرف القومى أو القبلى . لذا كان عمر من اشد الناس عداوة لهؤلاء ونكاية لهم وتنكيلا بهم . ولكنهم ما كانوا لقلتهم وتفرقهم يشكلون خطرا يقام له وزن ، بل كل وزنهم انهم « خارجون » على النظام العام للقبيلة ، لا يستنفرون الحمية كل الاستنفار ، بل قصارى الامر أن يهشوا كما يهش الذباب دون كبير اكتراث . ولست اقول ان هذه كانت حقيقتهم ، بل اقول ان هذا كان خليقا ان يكون نظر القوم اليهم . فهم لا يبشرون بدينهم ، ولا يكونون جبهة تدعو الى ترك عبادة اوثان القبيلة . فلا خطر منهم يحس ، ولا وزن لهم يقام ، وانما هى النقمة والعقاب الذى يستحقه كل خارج على « النظام العام » .

ثم ظهر فجأة حدث من نوع مختلف . ظهر رجل من اشرف بيت فى

قريش ، معروف بالصدق والأمانة والرزانة والوداعة ، قال إن الله أوحى إليه بدين جديد ، وأمره أن يدعو الناس إليه ، وأن ينبذوا عبادة أوثان القبيلة . رجل لا يتجه فى صلاته الى الكعبة ، بل الى بيت المقدس . . واخذ اناس من مكة يلتفون حوله ويتبعون دعوته . . .

هذا اذن وضع مختلف عن حال أولئك النفر ممن شذوا من قبل عن « النظام العام » من غير أن يسعوا الى قلبه . اما هذه الدعوة الجديدة فهى فى نظره ونظر امثاله دعوة الى قلب « النظام العام » الذى يناط به شرف القبيلة .

بل ان الكعبة التى يحج اليها العرب وتضرب لها أكباد الإبل من كل ارجاء الجزيرة العربية ، ومنها تستمد قريش شرفها ومكانتها الرفيعة بين قبائل العرب جميعا ، هذه الكعبة مهددة بهذه الدعوة الجديدة ، وبزوالها تنحل مكانة قريش ، وتذهب ريحها . . و . . .

ها هنا إذن قضية بدت لعمر بن الخطاب شاحذة لهمته مستنفرة لحميته ، ولروح البطولة فيه ، كى ينبرى للدفاع عن شرف القبيلة ، وهو عنده « القيمة العليا » التى لا يعرف يومئذ قيمة اعلى منها فى الوجود .

فلا غرابة اذن ان يكون عمر الجبار ، عمر البطل المطبوع ، من أشد الناس عداوة لمحمد ودعوة محمد ، التى يسميها دين الاسلام .

وجدير بنا هنا أن نتنبه إلى تساؤل يخطر بالذهن :

- أكانت عبادة الاصنام أهلا لاستثارة كل هذه الحمية فى نفس عمر بن الخطاب ، الذى كان معتدا بفطنته وفراسته ويقظة حسه ، بحيث يصب كل جبروته على أتباع محمد ، وهم اناس ضعفاء ، فيهم النساء والاحداث والشيوخ ، وكلهم مسالمون لا من أهل البغى والعدوان ؟

أكبر الظن أن الأمر لم يكن بهذه الصورة . فمثله لا يمكن ان يخفى عليه ان هذه الاصنام حجارة صماء لا تضر ولا تنفع . أليس هو الذى كان

بعد الفتح ، وفى عهد خلافته ، ما ان يطوف بالكعبة ويأتى الى الحجر الاسود ، حتى يقول له : « لولا انى رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك » . فهو فى حسبانه حجر لا يضر ولا ينفع . فاذا كان هذا مبلغ يقظة عقله وحسه فى مناسك الدين الذى آمن به وجاهد فى سبيل نصرته ، فاين كانت يقظة عقله وحسه على عهد الوثنية ؟

لقد كان كثير الطواف بالكعبة وهى بيت هذه الأوثان ، فأين كانت فطنته ؟

لا تفسير يقبله العقل سوى أن هذه الاوثان لم تكن ذات حرمة لديه لذاتها ، اى من حيث هى اوثان وأحجار ، بل من حيث هى « رموز » لشرف القبيلة وتراثها وتقاليدها ومكانتها الموروثة المصانة . شأنها شأن الراية ، التى هى خرقة من القماش مثل الخرق التى تستخدم فى أحط الاغراض ، ولكن قيمتها ليست فى كونها خرقة من القماش ، بل فى كونها « رمزا » للوطن ، أو الجيش ، أو الفريق الرياضى ، وما إلى ذلك .

لذا لا نعتقد ان جبروته وعتوه على المسلمين كان عن ايمان منه وطيد بالاوثان ، بل عن ايمان منه وطيد بأعلى قيمة عرفتها نفسه حينذاك ، وهى « شرف القبيلة » التى سفه محمد أحلامها وحقّر آلهتها . . . فكان شرف القبيلة هو « القضية الكبرى » أو « القيمة العليا » التى اعتقد انه لا قيمة تعلو عليها ، فهى اجدر بأن توهب لها كل حميته وروح بطولته . لأنها باتت فى خطر واضح صريح ، مثل خطر الحريق . .

هكذا كان اعتقاده . وهو اعتقاد أشبه بالفجر الكاذب الذى يحسبه الساهر الفجر الصادق ، وهو ليس كذلك . . . .

ولكن عمر مضى فى اعتقاده بذلك الفجر الكاذب ، ولم يستطع ان يتصور قضية أولى بالصيانة والاستماتة فى حمايتها ودفع الخطر عنها من قضية

« النظام العـام » لقبيلة قريش . فاندفع غاية الاندفاع فى هذا « الجهاد المشكـور ! » الـذى وجـد فيه ـ آخر الأمر ـ المجال الخليق بفطرة البطولة لديه . . تلك الفطرة التى كانت لا تجد لها متنفسا الا فى ميادين السباق أو حلبات المصارعة أو معاقرة الخمر ، ما استطاع إلى ذلك سبيلا . . .

ولكن شيئا غريبا لم يواجهه من قبل بدأ يتكشف لسريرته رويدا فى هذا المجال الجديد ، مجال التنكيل بأتباع محمد ، الذين يسمون أنفسهم المسلمين .

ففى حلبات المصارعة . وفى جميع الأحوال التى كان غضبه فيها يثور فيبطش بمن أمامه أشد البطش ، كان يشعر بأنه قهر خصمه غاية القهر ، فلم تقم له بعـدهـا قائمة . أما هؤلاء الخصوم الجدد ، فما أضعف شوكتهم أمـامـه . ولكنه مهما يبطش بهم يظل فيهم شىء لا يقهر ، وإن تضعضعت أجسـامهم تحت وطـأة جبروته . . . شىء يفل سلاحه ، ولا يستطيع هو أن يفله ، أو تصـل إليه يده البـاطشـة فكـأنـه فى حلبة يصارع فيها أشباحا لا ترى ، ولا تلمس ، وليس له إلى قهرها من سبيل .

هؤلاء الضعفى لهم « أرواح » مطمئنـة إلى ما تؤمن به ، حتى إنهم ليستعـذبـون ما ينـزل بهم من عذاب . وناهيك بعذاب يصبه جبار مثل عمر ! وانه لحال عجيب لم يسبق له ـ على خبرته الواسعة بحلبات المصارعة ومواقف الغضب والانتقام ـ ان يواجه مثله . فقد كان عهده بالخصم ان تنسحق ارادته تحت وطأة الهزيمة . فيكون فى ذلك فصل الخطاب . أما هؤلاء فهو يشبعهم ضربا واهانة ، ولا يستطيعون له ردا ولا دفعا ، ولكن الأمر ـ فى احساسه ـ لا ينتهى عند هذا الحد من الهزيمة وقلة الحيلة والحول والطول .

أجل ! يظل فى هؤلاء الصرعى شىء قائم لا ينمحق بما نزل بابدانهم من محق ، ولا يستلقى على الثرى كما استلقوا مصروعين تئن اجسادهم .

وانه ليرى فى عيونهم انهم هم أيضا يحسون بهذا الشىء الذى لا ينهزم ولا تصل إليه الضربات واللطمات والشتائم ، ولا تنزف منه الدماء .

أجل انهم يعلمون كما يعلم هو أن لهم تلك القوة الغامضة العنيدة التى لا يصل إليها جبروته الغاشم . من ثم يزداد غيظه ، ولا يستطيع التغافل عن هذا الوضع ، الذى يجعله المقهور وهو القاهر ، والمصروع العاجز فى حسبان سريرته وهم المصروعون فى ظاهر الأمر .

ولكن مثله لا يمكن أن يخدع نفسه ، بل لابد له من النفاذ إلى حقيقة هذا « السلاح السرى » الذى ليس له بمثله سابق عهد ، وهو العملاق الجبار الطويل المراس بمنازلة الاقران . . . ولئن لم يحس أحد هذا الوضع المقلوب الداعى للسخرية ، فلا مفر له هو من الاحساس بوطأته على عنجهيته وجبروته ، وكأنه يمرغ كبرياءه فى التراب !

ويكرر عمر النكال للمسلمين ، عسى أن يتغير الحال ، ولكن الحال يأبى الا أن يتكرر ! ولكن عناد من تعود النصر فى جميع المواقف والمواقع يدفعه الى استجماع أقصى جبروته عند هذا العدو العنيد غير المعهود . وفى كل مرة يجد النتيجة هى هى بعينها .

وعلى امتداد هذه الحملات ، يزداد عدد المسلمين باطراد ، فلا يكاد يمضى أسبوع من غير ان يتسامع مع الناس بشخص آخر فى مكة اعتنق دين محمد بن عبدالله . . . ويزداد التيار الخفى ، تيار العقل الناقد والحس اليقظ تمعنا فى ذلك « السلاح السرى » الجديد ، الذى لا يتأثر أصحابه بشىء . بل منهم من يموتون - إذا اقتضى الأمر - بنفوس راضية مرضية ، ثقة منهم بالنعيم الذى وعدهم به هذا الدين .

ومن شأن من تركيبته النفسية كتركيبة عمر ، أن يزداد التيار الظاهر استماتة لمقاومة التيار الباطن الذى يزداد إلحاحا وشدة داخل سريرته . فكل شدة فى التيار الجديد يحاول السلوك الظاهر أن « يعادلها » بمزيد من العنف

فى الاتجاه المضاد ، عسى أن يلغى تأثيرها المقلق المزعج ، الذى يصغر لديه نفسه وجبروته ، وهو الجبار العنيد بجبروته ، يرى فيه كيان ذاته كله .

وتبلغ شدة عمر أقصاها ، فيخيل إليه أنه لو قتل محمدا ، صاحب هذه الدعوة الجديدة - لأزال من الوجود مصدر ذلك السلاح السرى ، سلاح الايمان ، الذى يراه هؤلاء « المفتونون » القيمة العليا التى تعلو على كل قيمة معهودة ، وهى قيمة تراث القبيلة وشرفها ، وهى بذلك خقيقة أن توهب لها الحياة .

أجل ، ليقتل محمدا . . .

وإنه ليعلم أن بنى هاشم يمنعونه ، وأن للبارزين من أصحابه عشائر وقبائل لن تسكت على اهدار دمهم . ولكن منعة محمد أقوى المنعات ، لمكانة بنى هاشم الممتازة ، فلن يتركوه يمشى على الأرض حيا إن هو قتل محمدا .

يعلم عمر هذا ، ولكن « روح البطولة » تدفعه إلى التصدى للخطر وتحديه ، فان البطل المطبوع ليهجم حيث يحجم سائر الناس من حوله . ليكون اذن فداء للقيمة العليا التى نشأ على تقديسها ، ليطمئن جائش قريش وتستتب مكانتها كما كانت .

هذا هو خاطر أمره وفكره ، ولكن فى سريرته مقابل ذلك الدافع العنيد تيارا يزداد قوة ومراسا وتحديا لعقله ووجدانه . فكلما طما واحتد حقده على محمد ودينه . طما واحتد فى أعماقه استهوال ذلك السلاح السرى الذى لا يجدى معه جبروت . ولا تصل إليه يد بسوء . هذا السلاح السرى الذى يزداد تجسمه فى وجدانه ، وينبهه إلى ما للايمان بالعقيدة الإلهية من مستوى فى القيمة أعلى وأسمى بمراحل من قيمة القبيلة وتراثها . ويدعوه - فى خفاء ولكن فى إلحاح لا مواربة فيه ولا طاقة له بتجاهله - أن الأجدر به وبجبروته

احراز هذا السلاح الذى يحمله هؤلاء الضعفاء ، وان يجعل هذه القيمة الايمانية العليا قضيته التى تليق ببطولته المطبوعة .

وهكذا كان ما يسميه علماء النفس تكافؤ الضدين على أقصاه فى نفسه ، عندما كان البادى للناس ـ وله فى الظاهر ـ انه ماض فى مسار واحد لا بديل له ، وان عزمه معقود على المضى فيه إلى غاية مداه .

وبعد موهن الليل ، ها هو الفجر الكاذب الذى خاله صادقا ينجاب ليفسح المكان للفجر الصادق .

ها هى القضية التى خالها قضيته الخليقة ببطولته ، وهى قضية شرف قريش الجاهلى ، تتراجع امام قضية اضخم . قضية ليس أخلق منها بجهاد البطل المطبوع ، كى تنضاف الى قوة الروح الذى لا يقهر ، قوة البدن الفاره والحيوية الجارفة والحمية التى لا ترضى لنفسها عن التحدى والتصدى بديلا .

ولم تعد هناك الا خطوة واحدة ، يزداد فيها احد الضدين المتكافئين ـ وهما الشعور الظاهر والشعور الباطن ـ مثقالا جديدا من القوة ، كى تنقلب الموازين ، ويمحق التيار الاقوى التيار الاضعف ، وينتهى الى الابد ما كان بينهما من تكافؤ .

وهيهات أن يزداد مع هذا المثقال من القوة الاضافية تيار العدوان الجاهلى لدى عمر ، لأن التيار الأخر لم تزده المواقع إلا قوة ، فمدده روحى لا يعرف الهزيمة ، بل يظل دائما ساخرا من جبروت ذلك العملاق العنيد !

إنما هى موقعة أخرى بين عمر الجاهلى الغاشم وبين ذلك الروح ، ينتصر فيها الروح ، فيكون هذا النصر القشة التى تقصم ظهر البعير . . .

وعندئذ ينبلج الفجر الصادق !

البطل يجد القضية

الفجـــر الصــادق

ونـرجع إلى سيرة ابن هشام ، تحت عنوان « اسلام عمر » نقلا عن « ابن اسحق » .

« كان اسلام عمر فيما بلغنى أن أخته فاطمة بنت الخطاب وكانت عند سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل (فهو ابن عمها زيد بن عمرو) كانت قد اسلمت وأسلم بعلها سعيد بن زيد ، وهما يستخفيان باسلامهما من عمر . وكان نعيم بن عبد الله النحام (وهو رجل من قومه بنى عدى بن كعب) قد أسلم ، وكان ايضا يستخفى باسلامه فرقا من قومه . وكان خباب بن الأرت يختلف إلى فاطمـة بنت الخطاب يقرئها القرآن . فخرج عمر يوما متوشحا سيفه يريد رسول الله ﷺ ورهطا من اصحابه قد ذكروا له انهم قد اجتمعـوا فى بيت عنـد الصفـا ، وهم قريب من اربعين رجلا بين رجال ونساء . وفيهم عمه حمزة بن عبد المطلب ، وابو بكر بن ابى قحافة ، وابن عمه على بن أبى طالب وآخرون من المسلمين رضى الله عنهم ممن كان اقام مع رسول الله ﷺ بمكة ، ولم يخرج فيمن خرج الى أرض الحبشة . فلقى عمر بن الخطاب نعيم بن عبد الله ، فقال له : « اين تريد يا عمر ؟ » . فقـال «أريد محمدا هذا الصابىء. الذى فرق أمر قريش وسفه أحلامها وعاب دينها وسب آلهتها ، فأقتله ! » .

وها هنا لا يفوتنا ما فى هذه الصورة الدرامية من ابراز لسمتى الاندفاع والصراحة فى البطل المطبوع ، الذى لا يعمد الى الحيلة ، ولا يحتال على

القتل غيلة وختلا ، بل هو يجاهر بما هو مقدم عليه ، لأنه مؤمن به ، ولأنه ايضا قوى شجاع لا يبالى اعتراض المعترضين .

ولكن ينبغى ألا يغيب عن أذهاننا أيضا ما بسطناه من حال « تكافؤ الضدين » ، بين ظاهر وعيه وسلوكه ، وبين ضغط سريرته الباطنة ، التى يريد بهذا الاندفاع ان يحسم هذا « التكافؤ » أو « التأرجح » بين الضدين كى يريح نفسه ، بالفراغ من امر محمد بقتله ، وحجته الظاهرية فى هذا انه سبب تلك التفرقة فى امر قريش ، وما تسبب فيه لأتباعه المفتونين به من العذاب والتشريد . فهؤلاء « الضعفاء » فى رأيه ضحايا لذلك الداعية للدين الجديد . والبطل لا يليق به ان يصب جبروته على الضعفاء المخدوعين وحدهم ، بل الذى يليق به هو التصدى لمصدر هذا البلاء فى نظره .

ونعود الى ابن اسحق ، برواية ابن هشام :

فقال له نعيم :

- والله لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر ! اترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الارض وقد قتلت محمدا ؟ أفلا ترجع الى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟

قال عمر :

- وأى أهل بيتى ؟

قال نعيم :

- ختنك وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو ، واختك فاطمة بنت الخطاب فقد والله أسلما وتابعا محمدا على دينه ، فعليك بهما ! » .

فها هو نعيم اذن قد نقل تأثير ذلك السلاح الذى يؤرقه ويذهب بصوابه ويعييه أمره ، إلى داخل آل عمر الأقربين . فلم يعد « الأعداء » من

الأبعدين بل هم من أدنى الأقربين ، وفى ذلك التحدى له ولفتوته وجبروته . فإذا داعى الجبروت والحمية الجاهلية يدعوه إلى قطع أرحامه . فلنعد إلى ابن اسحق لنرى ماذا صنع .

فرجع عمر عامدا إلى أخته وختنه ، وعندهما خباب بن الأرت معه صحيفة فيها سورة « طه » يقرئهما اياها . فلما سمعا حس عمر (وعمر ذو حس عظيم أينما ذهب ، ولا سيما وهو غاضب) تغيب خباب بن الأرت فى مخدع لهم ، أو فى بعض البيت ، وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت فخذها ، وقد سمع عمر حين أتى إلى البيت قراءة خباب عليهما ، فلما دخل قال :

ـ ما هذه الهينمة التى سمعت ؟

قالا له :

ـ ما سمعت شيئا !

قال :

ـ بلى . لقد أخبرت أنكما تابعتما محمدا على دينه !

وبطش بختنه سعيد بن زيد ، فقامت إليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفه عن زوجها ، فضربها فشجها . فلما فعل ذلك قالا له :

ـ نعم ! لقد أسلمنا وامنا بالله ورسوله فاصنع ما بدالك ! .

آه ! إنه التحدى إذن ! «ذلك السلاح السرى» المحير الرهيب يتحداه مرة أخرى ، لا على لسان الضعفى من عرض الناس ، بل على لسان أخته وختنه (زوج أخته) وابن عمه ! يتحداه على لسانهما القائل له :

ـ لتصنع بنا قوتك الغاشمة ما تشاء ! فحسبنا إيماننا بالله عزاء وعوضا لنا عن كل ما يمكن أن نلاقى من المحنة والعذاب ، بل القتل إن شئت !

هنا بلغ تكافؤ الضدين غايته ! ذلك التكافؤ الذى كان عمر مندفعا كى يحسمه لحساب وعيه الظاهر واعتقاده الظاهرى القديم ، فاذا هذا التحدى الخارق ، المفاجىء يضيف المثقال المرجح إلى تيار سريرته . حيث هذا السلاح السرى الرهيب الذى يفل سلاحه ويلغى كل جبروته . .

يقول ابن هشام ، نقلا عن ابن اسحق :

فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع ، فارعوى !

وقال لأخته : أعطينى هذه الصحيفة التى سمعتكم تقرأون آنفا ، أنظر ما هذا الذى جاء به محمد . وكان عمر كاتبا قارئا (من بين رجال عددهم أقل من العشرين كاتبا فى قريش كلها) . فلما قال ذلك قالت أخته :

- إنا نخشاك عليها !

قال :

- لا تخشى شيئا .

وحلف لها بآلهته ليردنها إذا قرأها إليها ، فلما قال ذلك طمعت فى إسلامه فقالت له :

- يا أخى إنك نجس ، على شركك ، وإنه لا يمسها إلا الطاهر !

فقام عمر فاغتسل فأعطته الصحيفة ، وفيها « طه » فقرأها فلما قرأ منها صدرا قال :

- ما أحسن هذا الكلام وما أكرمه !

فلما سمع ذلك خباب بن الأرت خرج إليه فقال :

- يا عمر إنى والله لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه، فإنى سمعته أمس وهو يقول : « اللهم أيد الاسلام بأبى الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب ! » فالله الله يا عمر !

فقال له عند ذلك عمر :

ـ فدلنى يا خباب على محمد حتى آتيه فأسلم .

فقال له خباب :

ـ هو فى بيت عند الصفا معه فيه نفر من أصحابه ! » .

والرواية هكذا توهم أن ميل عمر إلى الاسلام كان من تأثر اللحظة . وهو فى الحقيقة أمر لا يسوغ فهمه على هذا الوجه السطحى ، بل جاءت هذه اللحظة بمثابة « الذروة » لتأثيرات تراكمية تتابعت على المدى الطويل فى سريرة ذلك العملاق النافذ البصيرة ، فأقرت فى نفسه المرة تلو المرة ، وفى الموقف تلو الموقف أنه وهو المحارب الذى لا يقوم له أحد ولا ينال ما وراء ظهره على حد تعبير معاصريه ، وهو نفسه أمام « سلاح سرى » من نوع جديد وغريب عليه تماما ، يجعل أضعف الخلق بنية أعصى على الهزيمة ببطشه من الجبابرة ذوى البأس الشديد . ما أشبهه بحال اليابان حين نزلت قنبلتا هيروشيما ، فلم تجد بدا من الإقرار بتفوق أصحاب هذا السلاح الذى لا يقوم له شىء ، ولا يجدى معه شىء !

وها هو يجرب مرة أخرى موقف العجز ، فى الوقت الذى أراد فيه أن يقضى على شعوره بذلك العجز الساحق لكبريائه ، بقتل مصدره : « محمد » . ها هو يجد ذلك السلاح الذى يشعره بالعجز التام متمثلا فى أقرب أهل رحمه إليه ، فى شخص أخته ، التى مازادها الشج وتدفق الدم إلا تحديا له أن يصنع ما يشاء !

ها هنا إذن انحسم الموقف ، وكانت القشة التى قصمت ظهر البعير وليس الفعل للقشه فى حد ذاتها ، بل لما كان قد تراكم قبلها فوق ظهر البعير من الأحمال التى وصلت إلى أقصى طاقته . فلما أضيف إلى هذه الأحمال الثقال المتوارية فى سريرة عمر ذلك الثقل الجديد ، كانت هذه هى « الضربة القاضية » .

كلا إذن ! ليس المخرج قتل محمد ، بل المخرج هو الانضمام بجبروته إلى محمد . فهاهنا قضية إيمان كونى تتجاوز قضية القبيلة وتراثها . ها هنا القضية التى تستحق أن توهب لها حياته وتحتشد لها بطولته الفطرية . .

وهكـذا حدث الانقـلاب فى نفس عمـر ، فإذا أشـد النـاس على المسلمين ، وقد بات أشد الناس على أعدائهم ، وأعتاهم فى الذود عنهم ، ونصرة ما يؤمنون به ويدعون إليه . .

ونعود إلى ذلك السرد الدرامى الذى يصحبنا فيه ابن اسحق :

فأخذ عمر سيفه وتوشحه !

أجل ، لم ينس عمر سيفه ، وكان قد توشحه آنفا ليقتل محمدا ، ولو بذل حياته فى سبيل ذلك . . ولكنه لا ينساه الآن ويتوشحه ، لأنه يريد أن يجعله فى خدمة القيمة العليا التى انقلبت نفسه إليها .

ثم ماذا بعد يا بن اسحق :

« ثم عمد إلى رسول الله ﷺ وأصحابه ، فضرب عليهم الباب !

ضرب عليهم الباب ! إنها حركات البطل العنيفة إذا جاشت نفسه بعداء أو مودة على السواء ! فلا عجب ، وما عهدوا إلا الشدة فى التنكيل بهم ، أن يرتاعوا ، وإن جهلوا من هو صاحب هذا « الضرب » على الباب لقوم مستخفين عن الناس .

فلما سمعوا صوته ، قام رجل من أصحاب رسول الله ﷺ فنظر من خلل البـاب (أى من شق فى أخشابه) فرآه يتوشح السيف ، فرجع إلى رسول الله ﷺ وهو فزع ! فقال :

- يا رسول الله ، هذا عمر بن الخطاب متوشحا السيف !

فقال حمزة بن عبد المطلب :

- نأذن له ، فإن كان جاء يريد خيرا بذلناه له ، وإن كان جاء يريد شرا قتلناه بسيفه .

موقف جديد بجبار آخر يقابل جبروته جبروت عمر ، وهو حمزة بن عبد المطلب ، ولكنه نمط آخر من الجبروت ، ومن الحمية ، موعدنا بعد قليل كى نقارن بينهما فى عناصر الشخصية وأنماط السلوك .

ومهما يكن من شىء فوجود حمزة كان كافيا للطمأنينة ، « فأذن له الرجل(أى فتح له) ونهض إليه رسول الله ﷺ حتى لقيه فى الحجرة ، فأخذ حجزته (أى موضع شد إزاره) وبمجمع ردائه ، ثم جذبه به جذبة شديدة وقال :

- ما جاء بك يا بن الخطاب ؟ والله ما أرى أن تنتهى حتى ينزل الله بك قارعة !

فقال عمر :

- يا رسول الله ! جئتك لأومن بالله ورسوله وما جاء من عند الله .

فكبر رسول الله ﷺ تكبيرة عرف أهل البيت من أصحاب رسول الله ﷺ أن عمر قد أسلم . وتفرق أصحاب رسول الله ﷺ من مكانهم ، وقد عزوا فى أنفسهم حين أسلم عمر مع اسلام حمزة ، وعرفوا أنهما يمنعان رسول الله ﷺ ، وينتصفون بهما من عدوهم . . . » .

● ● ●

وثمة روايات أخرى عن إسلام عمر ، لا نراها تفسر لنا تفسيرا نفسيا مقبولا ذلك الانقلاب المفاجىء فى نفسية عمر ، من التطرف العنيف فى العداء والتنكيل ، إلى التطرف فى الانتصار والحماية .

ومهما يكن من شىء ، فالبطل بهذا قد اهتدى إلى القضية التى تليق

ببطولته ، وترضى فطرته الخلقية التى قلنا أنها الشعرة التى تفرق بين الوغد المطبوع والبطل المطبوع .

لقد أيقن أخيرا أن المعسكر الذى يليق به هو معسكر الايمان بالقيمة العليا التى تدبر الكون ويمتد بها سلطان الروح فيرفع البشر من مستوى الحيوان الفانى الهالك ، إلى مستوى الخلود والبعث وحمل التبعات والاعتصام بالمبادىء الكونية ، وليس المعسكر المقابل الذى يجعل الآدمى حيوانا زائل الوجود ، يعيش ثم ينفق ، ثم لا يكون بعد ذلك إلا عدما . . .

لن تكون حمية البطل المطبوع فى نصرته لقضيته الكبرى أقل بلاء مما كان فى مناوأتها وخذلانها . وهو حقيق أن يكفر عن ذلك العتو فى حربها بالاستماتة فى تأييدها والنضال فى سبيلها . .

الجباران حمزة وعمر

آن لنا أن نتساءل عن ذلك الجبار من بنى عبد المطلب ، الذى كان وجوده إلى جوار المسلمين المختبئين فى دار الأرقم ضمانا كافيا من بطش جبار المشركين فى ذلك الحين ـ عمر بن الخطاب . آن لنا أن نتساءل عنه أهو من معدن عمر ، أم كلاهما جبار على اتفاق فى أمور ، واختلاف فى أمور أخرى من مكونات الشخصية .

حمزة عم محمد بن عبد الله ، فوالده هو عبد المطلب ، جد محمد ، وهو فى الوقت نفسه أخوه فى الرضاع . فقد تزوج عبد المطلب من هالة بنت أهيب ، وهى ابنة عم آمنة بنت وهب أم النبى محمد ـ وقد كان زواج عبد المطلب من هالة وزواج ابنه عبد الله من آمنة بنت وهب فى يوم واحد . فولدت هالة لعبد المطلب ابنه حمزة ، وولدت قريبتها آمنة لابنه عبد الله ابنه محمدا .

ثم هو أخوه فى الرضاع ، فقد أرضعت ثويبة كلا من حمزة ومحمد ، وهما بطبيعة الحال فى سن متقاربة جدا .

فحمزة إذن فى الذؤابة العليا من الشرف الرفيع فى قريش ، وهو سليل الجاه والعزة وكرم المحتد . ومن شأن من كان هذا وضعه فى الجاهلية أن يكون شديد الأنفة والحمية ، والعنجهية .

وقد شب حمزة فتى فارعا فاره الجسد ، منعما ، يجد متعته فى الصيد ، والخمر ، وكل ما يتبارى فيه أهل الجاه والوجاهة فى قريش . لا يجسر أحد

أن يقدم على شيء يغضبه ، وإلا لقى على الفور ما يرده إلى صوابه من الغضب الجائح والبطش . فلا عجب أن ترسخ هذه المكانة المصون فى نفس صاحبها أنه ليس بحاجة إلى تحدى أحد لاثبات قيمته ومكانته ، بل يكفى جدا أن يرد على بادرة العدوان أو التعدى أو سوء الأدب بالعقاب الرادع الذى يقدر عليه فى يسر .

فالأنفة مشتركة بين حمزة وعمر - وفراهة الجسم وشدة البأس وقوة البطش سمات مشتركة بينهما أيضا . ولكن مع اطمئنان حمزة إلى تسليم الناس بمكانته وحسبه وجبروته . أما عمر فيلح عليه ما يحز فى نفسه من بخس بطون قريش لعشيرته بنى عدى . ومن شأن هذا الشعور بالبخس أو الدونية أن يدعو العملاق الشاب إلى تعويضه بتحدى الناس ما استطاع ، كى يفرض عليهم ، هيبته وقوته ، ليؤسس بذلك لنفسه مكانة يراهم لا يسلمون بها له ولا لقومه الأدنين .

لذا أخال عمر كان صاحب اقتحام وصولة هجامة . أما حمزة فصاحب صولة مطمئنة ساكنة لا تهيج العداوة ، بل تنبرى للرد عليها بأشد العنف إن بدرت من العداوة بادرة . لأنه خال من الشعور بالبخس أو الدونية ، ومن ثم لا يجنح إلى التزيد فى تصرفاته على سبيل التعويض واستعراض القوة . وفيما خلا هذا ، فكلاهما ذو طبع نارى ، ومزاج حاد لا يقف له شيء إذا ماثار لأى سبب من الأسباب ، ومن اليسير أن يثور لأوهن الأسباب - وكلاهما كان مشهورا بحب الخمر والاسراف فيها ، وإن كان إسراف حمزة فى الخمر مصحوبا بمظاهر البذخ والوجاهة التى تليق بالجاه والنسب العريق . وقد حفظ الرواة صورا مشهورة لهذا البذخ وهذا الطبع النارى المحتدم .

ونلتفت هنا إلى ماروه بن اسحق عن ملابسات اسلام حمزة ، بعد ان احطنا بملابسات إسلام عمر . . .

حدثنى رجل من أسلم ، كان واعية ، أن أبا جهل مر برسول الله ﷺ عند الصفا ، فآذاه وشتمه ، ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه ،

والتضعيف لأمره ، فلم يكلمه رسول الله ﷺ ، ومولاة لعبد الله بن جدعان ابن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة فى مسكن لها تسمع ذلك ، ثم انصرف عنه ، فعمد إلى ناد من قريش عند الكعبة ، فجلس معهم . فلم يلبث حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه أن أقبل متوشحا قوسه ، راجعا من قنص له . وكان صاحب قنص يرميه ويخرج له ، وكان إذا رجع من قنصه لم يصل إلى أهله حتى يطوف بالكعبة . وكان إذا فعل هذا لم يمر بناد من قريش الا وقف وسلم وتحدث معهم . وكان أعز فتى فى قريش وأشد شكيمة .

فلما مر بالمولاة ، وقد رجع رسول الله ﷺ إلى بيته قالت له :

ـ يا أبا عمارة لو رأيت ما لقى ابن أخيك محمد آنفا من أبى الحكم بن هشام . وجده ها هنا جالسا ، فآذاه وسبه ، وبلغ منه ما يكره ، ثم انصرف عنه ، ولم يكلمه محمد !

فاحتمل حمزة الغضب . . . فخرج يسعى ولم يقف على أحد ، معدا لأبى جهل إذا لقيه أن يوقع به . فلما دخل المسجد نظر إليه جالسا فى القوم ، فأقبل نحوه ، حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه به فشجه شجة منكرة ، ثم قال :

ـ أتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول ؟ فرد على إن استطعت !

فقامت رجال من بنى مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل ، فقال أبو جهل عندئذ :

ـ دعوا أبا عمارة ، فإنى والله قد سببت ابن أخيه سبا قبيحا .

وتم حمزة رضى الله عنه على اسلامه ، وعلى ما تابع عليه رسول الله ﷺ من قوله . فلما أسلم حمزة عرفت قريش أن رسول الله ﷺ قد عز وامتنع ، وأن حمزة سيمنعه ، فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه .

انتهت رواية ابن اسحق ، التى نقلها ابن هشام . . . ومنها يتضح أن « العزة » كانت أهم صفات حمزة ، وأنه كان أعز فتى فى قريش ، وأن قوة الشكيمة كانت تساند هذه العزة، فتمدها بالقوة «الرادعة» و « المانعة » ولكنها ليست القوة المتهجمة أو المبادئة بالشر . . .

غضب حمزة لعزته وعزة قومه ، حين تهجم قطب منافس من عشيرة منافسة على ابن أخيه ، وسبه سبا قبيحا . والسب القبيح يمس الشرف والنسب ، وهما عرض العربى الكريم على نفسه ، الكريم فى قومه . فكان منه ما كان من إيذاء أبى الحكم فى رهط من قومه ، ولم يحاول أن ينفرد به . وهذا شأن العزيز الجبار! . . ولم يمنع انقلاب الموقف إلى معركة جماعية إلا أمل أبى الحكم (أبو جهل) أن يطامن اعتذاره من حمية حمزة فيرتد عما أعلنه ويجبهه به من انضمامه إلى صف ابن أخيه ودخوله فى دينه ، وخوفه أيضا من أن يحذو كل بنى هاشم - أو بنى عبد المطلب على الأقل - حذو حمزة فى الانضمام إلى دين محمد ، إذا صارت المسألة معركة جماعية بين بنى هاشم وبنى مخزوم . . .

ولكن حمزة لم يتراجع ، وليس لحر كريم مثله أن يتراجع عما أعلنه على رؤوس الاشهاد ، وفى الكعبة بالذات ، المكان الذى يقدسه كل عربى بعامة وكل قرشى بخاصة .

وأدركت قريش أن محمدا قد امتنع عليهم، بهذا السند « المنيع ». فهو قوة مانعة رادعة . تمنع عدوان المعتدين ، لأنها قادرة على ردعهم كما ردع عزيزا من أعزة قريش ، هو أبو الحكم بن هشام ، فناهيك إذن بها يحدث لرجل سواه من عرض الناس ، إذا حدثته نفسه بإيذاء حفيد عبد المطلب .

ولكن ذلك يمنع ابن أخى حمزة، ولايمنع سواد المسلمين من أتباعه، فمالبث أن اشتد بهم الويل ، حتى هاجر معظمهم إلى الحبشة ، كما هو معلوم .

فحسب السيد الجبار العزيز النفس والمكانة أن يحمى ابن أخيه الذى صار نبيه . ولكنه لا يتعرض إلا لمن يعتدى ، أما هو فلا يحرك ساكنا ولا يبدأ بالتحرش لأحد . شأن « السيد » العزيز ذى المكانة الرفيعة المسلم بها ، وإن كان بقوة بأسه قادرا على التحرش والتحدى لو شاء . .

إنه القوة الرادعة المانعة ، لا الضاربة ابتداء .

أما عمر فهو ذلك جميعا . نشأ متحديا بحكم ظروفه الاجتماعية والنفسية ، وتغلب فى حلبات المصارعة ، وفرض نفسه على الناس . وليكونن له منهج بعد اسلامه يختلف عن منهج حمزة ، ويتفق مع سليقته وسمات شخصيته التى جعلت منه ذلك البطل المطبوع ، الذى يناجز كل خصومه أن يبرزوا إليه ، ويبادئهم بما يكرهون ، ويبسط حمايته ومنعته على إخوته فى الدين كافة ، ويحمل تبعات الاقتحام بالدعوة الجديدة ، غير مكتف بالدفاع .

●●●

ولكن حمزة قد أعلن إسلامه ، لا أمام النبى والمسلمين بنجوة من أسماع المشركين ، بل بعيدا عن النبى والمسلمين ، وعلى ملأ من وجوه المشركين ووجهائهم . وبذلك عرف الأعداء أنه انحاز للمعسكر الآخر . أما عمر فكان اسلامه وسط المسلمين ، ولم يعرف بأمره المشركون الذين كانوا يعدونه من أقطابهم فى مناوأة الإسلام .

أفيسكت البطل ، مكتفيا بهذا الإسلام فى الخفاء !

معاذ القوة ! ومعاذ البطولة !

يقول ابن اسحق :

« حدثنى نافع مولى عبد الله بن عمر عن ابن عمر قال : لما أسلم عمر ابن الخطاب قال :

- أى قريش أنقل للحديث ؟

فقيل له :

- جميل بن معمر الجمحى .

فغدا عمر عليه . ويقول عبد الله بن عمر : فغدوت أتبع أثر أبى وأنظر ما يفعل وأنا غلام أعقل كل مارأيت ، حتى جاء إلى جميل بنى معمر فقال له :

- أعلمت يا جميل أنى قد أسلمت ودخلت فى دين محمد ؟

فوالله ماراجعه جميل حتى قام يجر رداءه واتبعه عمر ، واتبعت أبى ، حتى إذا قام جميل على باب المسجد صرخ بأعلى صوته :

- يا معشر قريش !

وهم فى أنديتهم حول الكعبة يسمعونه :

- ألا إن عمر بن الخطاب قد صبأ

فيقول عمر من خلفه :

- كذب ! ولكنى قد أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله !

وثاروا إليه ، فما برح يقاتلهم ويقاتلونه حتى قامت الشمس على رءوسهم ، وطلح (أصابه الإعياء) فجلس ، وقاموا على رأسه وهو يقول :

- افعلوا مابدا لكم ! فأحلف بالله أن لوكنا ثلاثمائة رجل تركناها لكم أو تركتموها لنا !

فبينما هم على ذلك ، إذ أقبل شيخ من قريش عليه حلة حبرة « فاخرة » وقميص موشى ، حتى وقف عليهم ، فقال :

- ماشأنكم ؟

قالوا :

- صبأ عمر !

قال الرجل :

- فمه ! رجل اختار لنفسه أمرا فماذا تريدون ؟ أترون بنى عدى بن كعب يسلمون لكم صاحبهم هكذا ؟ خلوا عن الرجل !

فوالله لكأنما كانوا ثوبا كشط عنه . . .

ويقول ابن هشام فى رواية أخرى على أثر ذلك .

« حدثنى بعض أهل العلم أن عبدالله بن عمر سأل أباه بعد هجرته إلى المدينة » :

- يا أبت من الرجل الذى زجر عنك القوم بمكة يوم أسلمت . وهم يقاتلونك ، جزاه الله خيرا ؟

قال عمر :

- يا بنى ذاك العاص بن وائل لا جزاه الله خيرا !

●●●

وفى هذه الرواية إبراز لكثير من سمات شخصية عمر ، فهو يقوم باعلان للكافة ، ولكل من يعنيه الأمر ، أنه أسلم ، ليعرف كل المشركين أنه غير موقعه من النقيض إلى النقيض .

ولم تكن هناك صحافة ولا اذاعة ، فعمد إلى تلك الاذاعة الحية على لسان « رويتر » قريش ، جميل بن معمر .

وليست المسألة عنده مسألة إعلان للكافة فحسب ، بل هى حركة

أشبه « بجر الشكل » مع حلفائه السابقين ! فهو لا يكتفى باطلاق جميل لينادى هكذا فى القوم ، بل يتدخل ليزيدهم غيظا وتحرشا ، كأنما يغريهم بافتتاح المعركة القتالية معه !

ألم أقل لك أن « معدنه » يختلف عن معدن حمزة ، وأنه قوة ضاربة متحدية ، لا مانعة رادعة فحسب !

وتكاثر عليه القوم . وهو يجالدهم ويجاهدهم بمفرده ، حتى الظهر ، فأصابه الاعياء ، فيكون قوله لهم أشبه بالاعتذار عن نفاد طاقته لكثرتهم :

- لو كنا ثلاثمائة رجل (مسلم) لناجزناكم ، فإما أجليناكم عن مكة أو أجليتمونا عنها .

إنها مرحلة جديدة إذن فى الدعوة الجديدة : مرحلة التحدى والحرب من جانب المسلمين ، لا من جانب المشركين ، كما كان الأمر من قبل .

وهكذا كان إسلام عمر بداية مرحلة التحدى والتصدى ، لا مرحلة الموادعة والمدافعة .

ولولا والد عمرو بن العاص ، وهو العاص بن وائل بن سهم ، الثرى والوجيه الأمثل ، لما انتهى ذلك اليوم هكذا ، فقد ذب عنه الناس وأجاره .

ومن عجب أن عبدالله بن عمر عندما سأل أباه بعد الهجرة إلى المدينة بعد سنين : من هذا الرجل جزاه الله خيرا ، كان رده العجيب ، هو فلان ، وأردفها بقوله :

- لا جزاه الله خيرا . . .

وهذه التعلقة أو الاستدراك الأخير أدل على مزاج عمر الرجل ذى الطبع المعين والذاتية المعينة من أى تعبير آخر ، فهو لا يستهويه ويأسره معروف الرجل الذى لا شك فيه ، بل يدعو عليه ، فليس يغفر له فى نظره مهما فعل أنه لم يسلم ومات على الشرك !

وهذه سمة عمرية ، لا أحسب الكثيرين يشاركون فيها ، وهى عدم التسامح ـ بأى ثمن ولأى مقتض مع أعداء إيمانه ، أى أعداء القيمة العليا التى صارت قضية البطل الكبرى ومدار حياته وبطولته . . .

عمر يقود التحدى ولكن . . .

لقد رأينا عمر يتحدى وحده المشركين ، ويشترك مع عشرات منهم فى معركة يدوية غير متكافئة العدد ، ولا تخضع لقوانين المباريات . وقلنا أنه افتتح باسلامه - وبدافع من تكوينه البطولى الذى أوضحناه آنفا مرحلة جديدة تماما فى الإسلام ، هى مرحلة المناجزة .

ولكنه لا يخرج من هذه المعركة مستسلما مندحرا ، بل يخرج منها ليعود إليها لا بمفرده ، بل بجمع المسلمين الموجودين فى مكة . يعود إليها قائدا لا بطلا فردا . . .

ولقد فكر وهو فى المعمعة بمفرده بعد أن نال منه الإعياء أنه لو كان معه ثلاثمائة رجل مسلم لاشتبك مع قريش كلها فى معركة حاسمة ، فلا أقل - وهم دون هذا العدد بكثير - من المناوشة والتحدى السلمى المسلح ، إن جاز هذا التعبير . وأعنى به ذلك النوع من استعراض القوة بغير هجوم أو مناجزة للنزال ، إعلانا للحق الطبيعى فى الوجود وإبداء الرأى . .

وليست هذه الخطوة بالهينة ، لأنها « تحريك » لقضية الدين الجديد من مرحلة التوارى ، أو النشاط السرى السلمى والذى يروغ من الأكثرية ويخفى حقيقته متظاهرة بعكسها أحيانا ، وبين المجاهرة وهم على شكل جبهة علنية تتمسك بحقها فى الوجود و « الشخصية المعنوية » كما يقولون فى هذه الأيام .

ومن المعروف برواية الرواة أن عمر بن الخطاب كان صاحب هذا

الاتجاه أو الخطوة الجديدة ، على أثر معركته الفردية مع ذلك العدد الكبير من رجال قريش عقب إسلامه ، إعلانا منه للكافة وإشهارا لهذا الإسلام .

ظل عمر بعدها يلح على النبى :

ـ ألسنا يا رسول الله على الحق إن متنا أو حيينا ؟

وهو كما ترى سؤال لا يسأله إلا بطل مطبوع على التصدى للموقف تصديا لا تحدث سواه نفسه بالانبراء له ، والحرص على هذا الانبراء ولو كانت نتيجته الموت !

فيجيبه النبى :

ـ بلى ! والذى نفسى بيده انكم على الحق ان متم أو حييتم !

فيقول عمر متسائلا فى دهشة لا تصدر الا عن مثله ، وأين فى الناس مثله :

ـ ففيم الاختفاء ؟ والذى بعثك بالحق لنخرجن !

وهو كما ترى كلام رجل لا يبالى الموت المحقق فى سبيل موقف مبدئى . وهذه ـ كما بينا آنفا ـ سمة البطل المطبوع ، التى تميزه عن غيره من شجعان الرجال ، فالشجاع يحس تقدير الموقف ، ولا يختار للمعركة مع عدوه ـ الوقت الذى يكون انتصاره فيه على عدوه راجحا أو محتملا . أما البطل المطبوع فقلما يفكر فى العواقب إذا تعلق الأمر بقضية كبرى أو قيمة عليا وهبها حياته . وعمر المسلم قد وهب دينه حياته كلها كما سترى .

وليس من شك أن المسلمين فى ذلك الظرف كان فيهم كثيرون من أشجع الشجعان ، وأشدهم تمسكا بإيمانهم ، وعلى رأسهم نبيهم ، ولكنهم كانوا يقدرون الموقف ـ كما يقول العسكريون ـ ولا يندفعون إلى المعركة فى ظروف تجعل إبادتهم ، والقضاء على بذرة الدين الجديد ، أمرا محتوما لا محل للمراء فيه .

لذا كانوا يستخفون ، لاخوفا من موت أشخاصهم ، بل خوفا على الدين الناشىء الذى هم كل ممثليه فى بلد الشرك والوثنية .

ولكن إلحاح عمر جعل النبى وأصحابه ينظرون إلى الأمر بالعين التى تطور الموقف تطويرا سياسيا ، وتغير موازين القوى المعنوية فى قريش ، وذلك لما فى مشورة عمر من « إعلان الوجود الجبهوى والمعنوى » للدين الجديد ، بحيث تقوى عزائم المسلمين ، لأن الاستخفاء يوهنهم ويجعلهم فى موقف المستضعفين المطاردين . أما الاعلان فيرفع الهامة ويعز الكرامة ، ويغرى نفرا من الأعداء بمراجعة موقفهم .

إلا أن النبى وأصحابه لا يريدونها « حملة عسكرية » ، ليس هذا أوانها ، وان كان عمر - أغلب الظن - ميالا إليها - بل هم يريدونها « حملة سلمية » للمناداة بحقهم فى الوجود ، ولإثبات هذا الوجود وهذه « الشخصية المعنوية » للدين الجديد . ولكنها حملة سلمية مسلحة متلاحقة الصفوف مستعدة للدفاع عن نفسها عند الاقتضاء .

ويقول الرواة أن المسلمين خرجوا على أثر إلحاح عمر فى صفين أحدهما فيه عمر ، والآخر فيه حمزة ، فأثار خروج الصفين ، أو السريتين بلغة عصرنا غبارا كثيفا بخطوهما المنتظم الذى يدق الأرض ، إلى أن دخلوا المسجد وقريش تنظر وقد علتها الكآبة ، فلا يقدر سليط منها ولا حكيم أن يقترب من صفين فيهما هذان الجباران !

ها هو عمرُ قد عاد لمواجهة قريش قائد كتيبة لافردا ، فى ذلك « العرض للقوة » المتأهبة للدفاع ورد من يتعرض لها . وأكبر ظنى أنه لوترك الحبل لعمر على الغارب لشنها غارة ومعركة ، ولكن حكمة النبى وأصحابه ذوى الحكمة والوقار وضعت الأمر فى هذا النصاب ، الذى جاء خطوة طبيعية حاسمة جدا ، تفرق بين التوارى والاقرار بالضعف ، وبين اعلان الوجود والاصرار على التحدى المعنوى بصفة خاصة . بالتوجه جماعة

للصلاة . وأين ؟ فى الكعبة قدس أقداس قريش التى يهدم الدين الجديد دينها القائم !

وكان عمر البطل ، وهو فى موقف المناجزة بمفرده يتوعد قريشا لو كان المسلمون ثلاثمائة رجل قادر على المصاولة لشنها معركة حاسمة ، إما البقاء وحدهم وإما الجلاء عن مكة . وهو فى طبيعته المندفعة وفى اعتداده بنفسه قدر ذلك العدو بأقل مما ينبغى لتلك المعركة الحاسمة بكثير . ومع هذا فعدد رجال المسلمين الأشداء لم يكن يبلغ عشر هذا العدو . أما الباقون فمن الصغار والنساء ، وكثيرون كانوا قد رحلوا إلى الحبشة فرارا بدينهم من الاضطهاد والعذاب .

فهذا العرض السلمى للقوة ، هو أقصى ماكان ممكنا فى ذلك الظرف . وهو ثمرة إلحاح عمر . الذى عاد للتحدى قائدا لا فردا ، ولكنه تحد معنوى لا تتوفر له أسباب وعناصر تحويله إلى تحد قتالى . فالشعور والرغبة لديه موجودان . بل إن الرغبة عنده تأكل صدره ، حتى ليعجب لماذا لا يناجزون قريشا ويخرجون إليهم ، ولو كانت النتيجة هى الموت ، ماداموا على الحق . .

فالحق ، أو العقيدة ، هى الآن كل شىء ، وهى أهم من الحياة ، إن الحياة تهون فى سبيلها بغير تردد .

وهذه هى روح البطولة . . .

ولكنه يجد من نبيه وصحبه ما يلجم هذه القوة الجبارة المندفعة للقتال ، بفكر يقدر المواقف ، ويتخير لكل فعل وقته الملائم .

ولكن هذه « المواجهة السلمية المسلحة » التى أثمرها إلحاح عمر ، ونمت تحت حمايته وحماية الجبار « السيد » الأمثل حمزة كانت لها آثار لا تقل عن آثار المواجهة القتالية . فكثيرون كما قلنا آنفا ، ممن كانوا فى قريش ميالين للاسلام ولكنهم يرون المسلمين مضطهدين متوارين أو يهاجرون إلى

الحبشة لم يجسروا على الانضمام للمسلمين . أما وقد رأوهم يقومون بهذه المظاهرة المسلحة ، ويصلون حول الكعبة ، مثبتين وجودهم المعنوى ، فقد تشجع كثيرون من هؤلاء ، وأعلنوا إسلامهم ، فازدادت « الجبهة » قوة وعددا .

وعندئذ أدركت قريش أن إسلام عمر كان فاتحة مرحلة جديدة ، أشد خطورة من ذى قبل . وأدعى لاستنفار قواها وحشد جهودها للمقاومة .

ولولا حماية بنى هاشم لمحمد لكانت قريش أقدمت على « العلاج الحاسم » الذى فكر فيه عمر ، حين توشح سيفه ليقتله ويقضى على « الفتنة » بأن يقتلعها من جذورها . وما تحب قبائل قريش أن تنشب فيها حرب أهلية دموية . ولكن قريشا قبيلة « المعاملات » و « التجارب » فليكن حربها إذن لآل محمد وحماته حربا تقوم على « المقاطعة المدنية » فى المعاملات والتجارة !

لا تزاوج مع بنى هاشم ! ولا بيع ولا شراء مع بنى هاشم !

هو الحصار المدنى والاقتصادى إذن ، إلى حد التجويع . وكتبوا بهذا العهد وثيقة علقوها فى بيت أوثانهم بالكعبة . فكان ذلك من قريش « مواجهة سلمية » ردت بها على المواجهة التى نمت تحت حماية عمر وحمزة ، بالحاح من عمر ، وكان من نتيجة هذا الرد السياسى الاقتصادى العنيف من الأغلبية الساحقة على الأقلية المسحوقة ، أن تراجع من المشركين من حدثتهم نفسهم بالاسلام متشجعين بمظاهرة عمر .

هى حالة حرب إذن ، لها كل مقومات الحرب فيماعدا الاشتباك العسكرى . وهى حرب قاسية لم يعد للرحمة ـ ولا لصلات الرحم ـ فيها مكان

ولست أظن عمرَ إلا كان ميالا فى طلب الاشتباك أيا كانت نتائجه ،

ولكن « قيادتـه » التى تستلهم وحى السماء كانت ترده عن عمل يعرض الجماعة كلها للخطر الذى لا يقف دون الفناء إذا انجرفت إلى ما يدعو إليه عمر . . .

وفى فترة هذه المحنة ، التى طالت أكثر من ثلاث سنين ، بدأ البطل المطبوع يتمرس بشىء لم يعهده اندفاعه الفردى من قبل ، ألا وهو « الانضباط » والطاعة لمايؤمن بأنه أمر صادر من مستوى فوق مستوى البشر . وهذا ما يهون عليه الخضوع والإذعان . فما أحسب أنه كان خليقا أن تطيب نفسه بالطاعة لبشر مثله يدب على قدمين ، لولا الايمان الجديد الذى ملك عليه نفسه .

البطولة تدخل مرحلة جديدة

قلنا آنفا أن بطولة عمر أدخلت دعوة الاسلام مرحلة جديدة . ولكن ما أجدرنا أن نلتفت إلى ملحظ لا يقل عن هذا استرعاء للانتباه : وهو أن اسلام عمر أدخل بطولة عمر مرحلة جديدة . لعلنا ألمعنا إليها فى السطور السابقة بايجاز .

فتكـوين هذا البـطل المـطبـوع تكوين فردى اندفاعى مستقل معتد بنفسـه ، لا يعـرف التردد فى سلوكه المقتحم المتحدى . ولكن دخوله فى الاسلام لئن أعز الاسلام ، إلا انه أدخل هذا البطل بوتقة صهرت فيها مكوناته النفسية ليخرج منها خلقا آخر : ليس فرديا فى اندفاعاته واتجاهاته ، بل له « بوصلة » داخلية لا تخصه وحده ، ولا تنبع منه وحده ، بل توجهه بأوامر نابعة من قيادة عليا ، عليه الآن أن يتكيف بها فى تصرفاته ، وإن كانت لم تبطل قوة جيشانه وسورات اندفاعه فى خدمة القضية الكبرى التى آمن بها .

هذه القـوة المنـدفعـة الجـارفـة ، عليهـا الآن أن تتعلم كيف تكون « محكومة » لا طليقة العنان ، بل عنانها فى يد مجريها . فهى قوة هائلة كما كانت ، إلا أنها قوة « موجهة » و « محكومة » . وإن كان ذلك لم يقض تماما على اندفاعاتها الفردية التى تأبى الاستسلام التام للشكائم واللجم !

أجل : إن الجواد الوحشى الجبار آن له أن يدخل مرحلة « الترويض » الـذى يجعل منه قوة نافعة للأغراض الجديدة ، وإن بقيت له من تكوينه الأصلى سورات اندفاع ، عليه فى المرحلة الجديدة أن يعرف كيف يقمعها !

إنها مرحلة « الانضباط » ، التى تربطه بسياسة الجماعة ومصالحها ، ولا تترك حبله على الغارب ، يندفع كلما ثارت نفسه المفردة .

وأى مدرسة للترويض لابد أن تبلغ فى عنفها مستوى يرتفع إلى مستوى « ضراوة » الجواد المراد ترويضه .

وهكذا كانت السنوات التى تلت إسلام عمر .

وفى قبوله لهذا الترويض العنيف الذى يناقض تمام المناقضة اندفاعه الأصلى الحر الذى طبع عليه ، ما يدلنا على مبلغ اتجاه جبروته ضد نزعاته الفطرية إطاعة لهذا الإيمان الجديد ، بحيث رضى أن يراض على عكس كل مافيه هواه وطبعه الذى شب عليه .

وننظر فى سيرة ابن هشام ، نقلا عن ابن اسحق :

فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نزلوا (فى الحبشة) بلدا أصابوا به أمنا وقرارا ، وأن النجاشى قد منع (حمى) من لجأ إليه منهم ، ورأوا أن عمر قد أسلم ، فكان هو وحمزة بن عبد المطلب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وجعل الاسلام يفشو فى القبائل ، اجتمعوا وائتمروا أن يكتبوا كتابا يتعاقدون فيه على بنى هاشم وبنى عبد المطلب على ألا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم ، ولا يبيعوهم شيئا ، ولا يبتاعوا منهم شيئا . فلما اجتمعوا لذلك كتبوه فى صحيفة ، ثم تعاهدوا وتواثقوا فى ذلك ثم علقوا الصحيفة فى جوف الكعبة . . .

وواضح أن إسلام عمر كان حاسما فى فرض معالم جديدة على الخريطة السياسية فى قريش . فماذا كان من نتائج ذلك ، فى سيرة ابن هشام أيضا ؟

« فجعلت قريش حين منع الله نبيه منها ، وقام عمه أبوطالب وقومه من بنى هاشم وبنى المطلب دونه ، وحالوا بينهم وبين ماأرادوا من البطش به ، يهمزونه ، ويستهزئون به ويخاصمونه . وجعل القرآن ينزل فى قريش

بأحداثهم ، وفيمن نصب لعدوانه منهم ، ومنهم من سمى لنا (ومنهم عمه أبو لهب وامرأته أم جميل حمالة الحطب) ومنهم من نزل فيه القرآن فى عامة من ذكر الله من الكفار » .

ويقول ابن إسحق :

« وإنما سمى الله تعالى أم جميل زوجة أبى لهب حمالة الحطب لأنها كانت ـ فيما بلغنى تحمل الشوك فتطرحه على طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم . . . وأمية بن خلف بن وهب كان إذا رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم همزه ولمزه . . .

« . . . والعاص بن وائل السهمى (والد عمرو بن العاص) كان خباب بن الأرت صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم قينا بمكة يعمل السيوف ، وكان قد باع العاص بن وائل سيوفا عملها له حتى كان له عليه مال ، فجاءه يتقاضاه فقال له :

ـ ياخباب ! أليس يزعم محمد صاحبكم هذا الذى أنت على دينه أن فى الجنة ما ابتغى أهلها من ذهب أو فضة أو ثياب أو خدم ؟

قال خباب :

ـ بلى !

قال العاص :

ـ فأنظرنى إلى يوم القيامة يا خباب حتى أرجع إلى تلك الدار فأقضيك هناك حقك ، فوالله لا تكون أنت وصاحبك يا خباب آثر عند الله منى ، ولا أعظم حظا فى ذلك ! . . .

بل إن هذا الحوار التهكمى كان أشد فظاظة مع نبى الاسلام شخصيا ، ومثال ذلك ما روى عن فظاظة أبىّ بن خلف واستهزائه وتهكمه به .

وهذه عينات من « الايذاء » الشفوى أو العملى الخفيف ، أما العذاب فكان عنيفا للضعفاء من المسلمين ، ولا سيما العبيد منهم ، غاية العنف .

فقد كان للعمل الدعائى الذى تمثل فى مجاهرة المسلمين باسلامهم بعد اسلام عمر وتقويهم به أثره المزعج لقريش ، باقبال نفر من أهل مكة على الاسلام والاجتراء على اعلانه ، ويقول ابن اسحق :

« وبلغ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين خرجوا إلى أرض الحبشة اسلام أهل مكة ، فأقبلوا لما بلغهم من ذلك ، حتى إذا دنوا من مكة بلغهم ان ما كانوا تحدثوا به من اسلام أهل مكة كان باطلا ، فلم يدخل أحد منهم إلا لائذا بجوار قطب من أقطاب قريش ، أو مستخفيا . . . » .

ذلك أن قريشا كانت قد أقدمت على العمل السياسى والاقتصادى المضاد كما ذكرنا ، ففتن كثيرون ممن كانوا قد تجاسروا على الاسلام ، وأصبح الموقف شديد التأزم .

وما كان عمر ، لو بقى على حاله الفردى ليسكت ، بل لابد أنه كان سيندفع للمجالدة البدنية والاشتباك فى ملاحم فردية ، ولكن الروايات لم تذكر شيئا من هذا ، مما يدل على أنه دخل مرحلة الترويض والانضباط .

ثم اشتد الأمر فلجأ كثير من أقطاب المسلمين إلى « الاستجارة » بأقطاب ذوى سطوة وجاه من المشركين . ونحن نعلم أن العاص بن وائل هو الذى أجار عمر ، وأما أبو بكر فدخل فترة فى جوار ابن الدغنة ثم رد جواره إليه عندما أراده على التكتم فى قراءة القرآن .

وبلغ الحصار الاقتصادى ذروته على أثر وثيقة الصحيفة ، فاضطر المسلمون أو بنو عبد المطلب ، إلى الاعتصام بشعب خارج مكة ، لا ينفذ إليه أحد بطعام ، حتى كادوا يهلكون ، لولا شفقة بعض ذوى الرحمة من

القرشيين الذين أبت أخلاقهم عليهم قطع الأرحام إلى حد القتل جوعا ، وفى الجمع أطفال صغار لا طاقة لهم بذلك .

وطوال هذه السنوات الشداد كان عمر لا يزيد على أن يتحمل هذا العسف والضيم والمصادرة ، شأنه شأن بقية المسلمين ، ولا ينبرى للاشتباك فلو أنه كان منه شىء من ذلك لما فات الرواة أن يرووه عنه .

فهذا السكوت المطبق من جانب عمر ، أدليل هو على نقض ما أثبتناه له من روح البطولة المطبوعة ؟ وإلا فأين ذهب اقتحامه وإباؤه السكوت على ضيم ، وعدم المبالاة فى سبيل ذلك بالعواقب ؟

بل الأمر فى رأينا بالعكس . فبطولة عمر التى كانت مندفعة بغير زمام ولا لجام ، قد تطامنت واتجهت إلى الداخل : إلى قمع هذه الاندفاعات الحيوية الجامحة ، لكى تخضع وتستسلم . أليس الاسلام أن يسلم المرء لله وما يأمره به ؟ إنه الآن أسلم ، وعليه أن يمتثل لما يصدر إليه من أمر الله ، على لسان نبيه الذى آمن به ، مهما خالف هذا الأمر ما ينزع إليه طبعه الجامح . . .

ولست أتصور عمر فى هذه السنوات ساكن النفس لا يجيش بالرغبة فى الاشتباك بالكفار ، بل أتصوره دائم النزوع والثورة على هذه « السلبية » ، ولكن من يقوم بترويضه يزجره ويرد من اندفاعاته ، فيجعل طاعته امتحانا لإيمانه وتسليمه . . .

وكان عنف الاضطهاد مدعاة لعنف إثارة طبع عمر العنيف ، وهذا مقياس يبين لنا صرامة ذلك الترويض الذى تعرض له ، فما أشبهه بالترويض الذى يتحكم فى ثورات البراكين ، ويرغمها على قمع شواظها الجامح . . .

وظل عمر إلى أن صدر الأمر بالهجرة إلى المدينة التى أسلم كثير من

أهلها وبايعوا على نصرة النبى ومنعه ممايمنعون منه أنفسهم وآلهم . فهاجر فيمن هاجر .

ولقد أغرى عنف عمر بعض المؤرخين أن يزعموه خالف أمر نبيه فى الاستخفاء عن الهجرة ، فقالوا « هاجر الجميع مستخفين إلا عمر ، تنكب قوسه وتوشح سيفه وتحدى القرشيين فى دار الندوة أن يتبعه منهم من شاء أن تثكله أمه ! » . . . ولكن رواة السيرة ، ابن اسحق وابن هشام ، وغيرهم من الثقات لا يروون شيئا من هذا . وهو الدليل على أن البطل قد تخرج تلك السنوات بنجاح عظيم فى مدرسة الترويض . وصار أهلا لطور جديد .

وينبغى أن نلتفت ها هنا إلى ملحظ بالغ الأهمية ، فذلك الترويض العنيف غاية العنف كان ينصب أساساً على سلوك عمر وعلى تصرفاته . أما جيشان نفسه ، وأما مشاعره فلا سبيل ولا سلطان عليها لأحد سواه .

وفى حسبانى أن ذلك الكف الشديد لجبروته واندفاعاته لم يكن من الممكن أن يلغى حيويته الدافقة التى كانت « موظفة » فى اندفاعاته الجامحة طوال حياته حتى تلك الحقبة . والقانون الطبيعى أن القوى الطبيعية العاتية التى تقمع مظاهرها فى شكل معين لا تموت ، بل تتخذ هذه القوى العاتية مصرفا آخر لها غير المصرف المسدود .

فلئن صادر الترويض سمات عمر الباطشة ، فلابد أن قواه النفسية الجارفة اتخذت لها مجالا آخر لنشاطها غير مجال الفعل البدائى . وليس أمامها فى هذه الحالة غير المجال الشعورى والذهنى . وهكذا ارتد نشاط حيويته إلى داخل سريرته ، عوضا عن الاتجاه الخارجى . فانكب طوال تلك السنوات على تأمل مشاعره وأفكاره ، وتعميقها ، ومراقبة خواطره ونوازعه مراقبة يقظة غاية اليقظة حتى لا يفلت منه زمامها ، فتخرج عن النطاق الذى رسمه « النظام العام » فلم يكن مباحا فى آيات القرآن حتى

ذلك الوقت قتال المشركين . ولم يحل للمسلمين سفك الدم . بل هى الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، ودفع الأذى بالتى هى أحسن . وذلك نقيض « نزالية » عمر التى طبع عليها .

فلم يكن أمام عمر فى هذه السنوات إذن إلا أن « ينازل ذات نفسه » ليبرع فى السيطرة عليها ، ومراقبتها ، مسيئا بها الظن ، لأنه يعرف ما ألفته ودرجت عليه ، مشتدا فى ترويضها المفروض عليها من « القيمة العليا » و« القضية الكبرى » التى وهبها حياته منذ أسلم .

ومن هذه المراقبة والمغالبة عرف إلى أى مدى تكون النفس أمارة بالسوء ، نزاعة إلى إشباع الشهوات . وبقدر إيمانه بدينه كانت شدته فى محاربتها .

ومن هذه المراقبة والمحاربة لنفسه ونزعاتها الفطرية عرف أن داخل كل إنسان مثل هذه النوازع . وبرع فى معرفة النفس البشرية بوجه عام ، براعة أكسبته فراسة عظيمة ، نفعته كثيرا فيما بعد . وهكذا صار سىء الظن بكل من يتولى سلطة تيسر له إرضاء نوازعه الخفية . وبدا ذلك فى معاملته لولاته بعد أن صار أمير المؤمنين .

ومن طريق شدته على نفسه ، صار مؤهلا للدور العظيم الذى أتيح له بعد الهجرة وقيام الدولة الاسلامية فى المدينة ، لأنه صار بذلك الترويض النفسى نمطا نادرا من الرجال تشاد بهم الدول .

رجل الدولة

تمت الهجرة فبدأت مرحلة جديدة حاسمة فى تاريخ الاسلام ، ومرحلة جديدة حاسمة أيضا فى جهاد البطل المطبوع الذى أصبح مروضا منضبطا فى تلك السنوات العسيرات التى سبقت الهجرة .

فبالهجرة لم يعد الاسلام مطاردا مضطهدا ، بل صار له حمى مستقر مصون من الأنصار فى يثرب ، لاذ به المهاجرون وتآخوا معهم وصار أمام عمر مجال للنشاط مختلف عن المجال الذى كان يستثير نفسه فى مكة ، كاختلاف الأمن والأمان عن الضنك والمصادرة .

وفى هذا الاطار الجديد يصبح لعنصر من أهم عناصر شخصية عمر الجديدة نشاط بارز مستفيض . وأعنى بذلك ما كان يتميز به دواما من حدة الذهن ، واستقلال الرأى ، وصدق الفراسة التى انصرفت كل قواه النفسية الجارفة إليها فى سنوات الترويض . وهى أمور تدعو الحاجة الملحة إليها فى تأسيس الدول وسياسة الرعية ، والاتصال بالمحالفين والتعامل مع المخالفين . وفى المدينة (يثرب) لأول هبوط المهاجرين إليها ، كان فريق كبير من أهلها ، الأوس والخزرج ، قد أسلموا ولكن بقى سائرهم على الشرك . وكان على أرباض المدينة معقل اليهود . فكان التعامل مع هؤلاء وهؤلاء ، يحتاج إلى الرأى وإلى الكياسة وحسن السياسة .

وفى هذه الأمور بدأ يبرز نفاذ بصيرة عمر ، وحسن دهائه رويدا رويدا . إلى جانب ما يدعو اليه الحال من الاستعداد لحرب قريش عندما يأتى أوان الحرب .

وكان الإذن قد نزل على النبى وهو فى مكة ، قبيل الهجرة . ففى الرواية المسندة إلى ابن إسحق قوله :

« وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل بيعة العقبة لم يؤذن له فى الحرب ، ولم تحلل له الدماء . إنما يؤمر بالدعاء إلى الله والصبر على الأذى ، والصفح عن الجاهل . وكانت قريش قد اضطهدت من اتبعه من المهاجرين ، حتى فتنوهم عن دينهم ، ونفوهم من بلادهم ، فهم بين مفتون فى دينه ، وبين معذب فى أيديهم ، وبين هارب فى البلاد فرارا منهم . منهم من بأرض الحبشة ، ومنهم من بالمدينة ، وفى كل وجه . . . »

وهذا الحال ، من تحريم القتال على المسلمين ، وأمرهم بتحمل الأذى فى صبر وصمت ، والصفح عن الجاهل ، والدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، هو المراض الذى طال سنوات روضت فيها طبيعة عمر الجامحة بأقسى ما يملكه الترويض لنفس مثله ، كما أشرنا آنفا .

ويستطرد ابن إسحق القول :

« فلما عتت قريش على الله عز وجل ، وردوا عليه ما أرادهم به من الكرامة ، وكذبوا نبيه صلى الله عليه وسلم ، وعذبوا ونفوا من عبده ووحده وصدق بنبيه ، واعتصم بدينه ، أذن الله عز وجل لرسوله صلى الله عليه وسلم فى القتال ، والانتصار ممن ظلمهم وبغى عليهم ، فكانت أول آية أنزلت فى إذنه له فى الحرب ، وإحلاله له الدماء والقتال لمن بغى عليهم ، فيما بلغنى عن عروة بن الزبير وغيره من العلماء قوله تعالى :

- « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير • الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز • الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور » . . .

ويستطرد ابن إسحق أيضا فيقول معقبا على ذلك :

فلما أذن الله تعالى له صلى الله عليه وسلم فى الحرب ، وبايعه هذا الحى من الانصار على الاسلام والنصرة له ولمن اتبعه ، وأوى إليهم من المسلمين ، أمر رسول الله ﷺ أصحابه من المهاجرين من قومه ومن معه بمكة من المسلمين بالخروج إلى المدينة والهجرة إليها . . .

فالهجرة إذن كانت الخطوة المؤدية للقتال فيها بعد ضد المشركين . فطبيعى أن الفترة الأولى بيثرب كانت لإقامة « مهد » الدولة الاسلامية الوليدة أولا ، كى يتسنى على أثر ذلك النفور إلى القتال . وفى الطورين جميعا ، طور تمهيد الدولة وإقرار الأمان ، وطور محاربة الأعداء ، مجال فسيح لعمر صاحب الرأى الألمعى ، وعمر المقاتل المجاهد على السواء .

ولعل أول بادرة من بوادر الرأى الألمعى كانت مسألة الأذان . وفيها قال ابن اسحق :

فلما اطمأن رسول الله ﷺ بالمدينة ، واجتمع إليه إخوانه من المهاجرين ، واجتمع أمر الأنصار ، استحكم أمر الإسلام ، فقامت الصلاة ، وفرضت الزكاة والصيام ، وقامت الحدود ، وفرض الحلال والحرام ، وتبوأ الإسلام بين أظهرهم .

« وكان هذا الحى من الأنصار هم الذين تبوءوا الدار والإيمان وقد كان رسول الله ﷺ حين قدمها إنما يجتمع الناس إليه للصلاة لحين مواقيتها ، بغير دعوة . فهمّ رسول الله ﷺ حين قدمها أن يجعل بوقا كبوق اليهود الذين يدعون به لصلاتهم ، ثم كرهه . ثم أمر بالناقوس (الجرس) ، فنحت ليضرب به للمسلمين للصلاة » .

ثم فى نبذة لاحقة يقول ابن هشام عن ابن جريج :

قال لى عطاء : سمعت عبيد الله بن عمير الليثى يقول :

ائتمر (تشاور) النبى ﷺ وأصحابه بالناقوس للاجتماع للصلاة ، فبينما عمر بن الخطاب يريد أن يشترى خشبتين للناقوس ، إذ رأى عمر بن الخطاب فى المنام : لا تجعلوا الناقوس بل أذنوا للصلاة . . . فذهب عمر ابن الخطاب إلى النبى ليخبره بالذى رأى، وقد جاء النبى بذلك، فما راع عمر إلا بلال يؤذن . . .

ونحن نفسر رؤيا المنام هنا تفسيرا طبيعيا ، بأنها انعكاس وتكثيف لانشغال نفسه بهذا الأمر ، ونؤوله على أنه فرط رهافة حس واتقاد شعور بكل ما يخص أمر العقيدة وأهلها وما ينصلح به حالها .

وحسبك من نباهة هذا التفكير أن عمر انصرف إحساسه إلى وجوب تمييز الدعوة للصلاة الاسلامية . فلئن كان البوق أداة الدعوة إلى صلاة اليهود فى المدينة ، فمن شأن استخدامه للدعوة لصلاة المسلمين أن يتشابه الأمران وتتشابه الدعوتان . وقد كره النبى ذلك ، وأكبر الظن أن ما ذكرناه هو السبب وراء الكراهية .

ولم يكن فى المدينة نصارى يدعون إلى الصلاة بالناقوس ، ولكن العرب عرفوا فى الشام وغير الشام استخدام النصارى للنواقيس . فالتفكير فى الآذان الذى هو نداء بالكلام والدعوة الكلامية ، إنما هو تفكير له سند كبير من « علم الإعلام » ،لأنه نشر بالصوت المرتفع لشعارات هذا الدين الجديد . .

وعلى هذا القياس سنجد عمر إلى جوار النبى بالرأى النابه والتفكير المستقل الذى لا يسير فى الدروب المطروقة ، وينفذ إلى لباب الأمور باللمحة التى هى من خصائص الالهام ولا مراء ، ولا سيما فى الفترة الأولى التى بدأت فيها المؤمرات بين اليهود وبعض منافقى أهل المدينة . الأمر الذى يحتاج إلى حكمة وحسن سياسة ، لا شك أن عمر كان يشارك فيها بعض المشاركة ، ولا شك أيضا أنه كان يتعلم من النبى وأبى بكر فى هذا

السبيل أضعاف ما يسهم به . . ولكنه على كل حال كان يشارك بالرأى ، يقول ويسمع ، ويزيد مرانه فى أمور السياسة ، إلى أن يأتى دور الحرب ، ويدلى برأيه المستقل فى جميع الأحوال ، أخذ به أو لم يؤخذ ، لأنه البطل الذى تم ترويضه واستسلم لإيمانه .

فلا ريب أن عمر فى هذه المرحلة ، مرحلة رجل الدولة كان لا يتردد فى إبداء رأيه المستقل الذى انصرفت قواه النفسية كافة فى سنوات الترويض على تنميته ، حتى ولو خالف رأى النبى ، ولا يتردد فى معارضته بكل الحماسة التى بقيت من سمات شخصية عمر « الرجل » ، لأنه بطل مطبوع على التصدى المتطرف لكل ما يعتقد أنه ينصر قضيته الكبرى التى وهبها حواسه وتفكيره وقوته وحياته .

أجل كان عمر رجل الرأى والقتال معا ، ولكن دوره الفذ أنه كان رجل الرأى الألمعى المستقل .

وفى غزوة بدر خطب عمر ، كما خطب أبو بكر ، لتحميس المجاهدين على القتال . ولا نشك فى أن هذا البطل المطبوع وجد فى غزوة بدر فرصة لتحقيق ذاته القتالية التى طال به عهد انتظارها منذ سنين . وفى هذه الموقعة هزم المسلمون أضعاف عددهم من رجال قريش ، وقتلوا منهم خلقا كثيرا .

ولكن ليست البطولة فى القتال يومئذ ما نرمى إليه من ذكر عمر ، بل إلى ما كان له من الرأى فى أسرى المشركين ، وكانوا نحو سبعين رجلا . فهو رأى لا ينبع إلا ممن كانت له عناصر عمر النفسية . ألح على النبى أن يقتلوا ، ولكن النبى آثر أن يأخذ فيهم الفدية من آلهم ، عسى أن يكسب قلوبهم . وقد أسلم بعض هؤلاء الأسرى ومنهم زوج زينب ابنة النبى . .

إنه عنف عمر ، وشدة بأسه ، لا يعرفان حدا يقفان عنده ، ما دام قتال هؤلاء الكفار قد أذن به القرآن ، وأحل دمهم .

ــ . . . وهؤلاء يا رسول الله هم ! كذبوك وقاتلوك وأخرجوك ، فاضرب رقابهم . . فهم رءوس الكفر وأئمة الضلالة . فيوطىء الله بها الإسلام ويذل بهم من أهل الشرك !

ها هنا عمر الرجل ! عمر ذو الطبع الحاد والمزاج العنيف ! وهو أيضا عمر ذو الرأى المستقل ، المتطرف فى تعبيره عن المبدأ والغيرة على العقيدة ! وما كان أبو بكر أقل منه حماسة ، ولكنها حماسة تتفق ومزاجه أو طبعه الذى يؤثر اصطناع القلوب ، وسماحة العفو عند المقدرة .

وفى هذا الموقف ، تختلف « السياسة » عن « الحمية الفردية » التى استوعب بها عمر عقيدته فاصطبغت عنده بصبغتها العمرية ! فالسياسة قراراتها تنعكس على الجماعة كلها ، وينبغى أن يكون لها فيها رأى . ولذا شاور النبى أصحابه ، من المهاجرين والأنصار ، فآثروا قبول الديات أو الفديات ، كى تقوى بها الحالة الاقتصادية غالبا . لأن نزول المهاجرين بالمدينة جعل الحاجة ماسة إلى « إنشاءات » للاسكان والمرافق ، وإلى أموال للمعيشة ، ولشراء السلاح . ولهذه الأغراض كان بعث السرايا التى سبقت غزوة بدر الكبرى . وأهمها سرية حمزة إلى سيف البحر وغزوة بواط وغزوة العشيرة وغزوة صفوان . . .

كان أصحاب النبى ـ عدا عمر منفردا برأيه ـ لديهم مبرراتهم المعقولة المحسوبة بحساب الواقع ، واحتياجات الدولة الملحة .

ولكن عمر أصر على رأيه ، لأنه مدفوع بالمبدأ الذى استوعبه « وأعنى هنا أن المبدأ استوعب عمر » ، وأن المبدأ صار ينطق على لسانه ، مستعيرا رويته وطبعه الحاد المتطرف . . .

أصر وإن رضخ مرغما . إلا إنه لم يقتنع . فما أن وجد رجلا بين الاسرى من أشد خطباء قريش عنفا فى التنديد بمحمد ودينه ، وهو سهيل ابن عمرو ، حتى ألح على النبى أن يخلع ثنيتيه ـ وكان الرجل أعلم أى

مشقوق الشفة السفلى - فإذا خلع ثنيتيه لم يستطع الخطابة بعد أن يعود إلى قريش ، ويكف بذلك أذى لسانه عن النبى والمسلمين .

واستفظع النبى أن يستخدم المثلة . . . أى تشويه الجسم - بعد أن قبل فيه الفدية . ومرة أخرى ارتد عمر كاسف البال ، يغلى صدره بالغيظ . . .

ولكن لم يلبث أن نزل قرآن فى هذه المسألة بالذات :

- ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض ، تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة ، والله عزيز حكيم * لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيها أخذتم عذاب عظيم !

(سورة الأنفال)

والآية قاطعة بالتنديد بمن أرادوا عرض الحياة الدنيا ، وهو فديات الأسرى ، وأن رأى عمر بن الخطاب ، الذى تفرد به ، هو خير للعقيدة وللدين .

وكان ذلك أول انتصار أبرز ألمعية رأى عمر ، فى تطرف إيمانه وحماسته له إلى أبعد الحدود .

ولا شك أنها كانت نقطة تحول فى مركز عمر ذى الرأى الألمعى المستقل، بين أصحاب النبى، أى بين رجال الدولة الاسلامية الناشئة .

وما نريد أن نتعقب من مواقف الرأى عند عمر الا ما كان له شأن بارز فى اظهار سمة استقلال الرأى والتطرف فيه للمبدأ والعقيدة . فنقف مليا عند يوم وفاة عبد الله بن أبى بن سلول ، كبير المنافقين ، الذى تعددت سوابق نفاقه .

وننقل هنا نص كلام عمر بن الخطاب كما ورد فى سيرة ابن هشام باسناده :

سمعت عمر بن الخطاب يقول :

ـ لما توفى عبد الله بن أبى دعى رسول الله صلى الله عليه وسلم للصلاة عليه ، فقام إليه ، فلما وقف يريد الصلاة عليه تحولت حتى قمت فى صدره ! . . .

وهى جرأة لا يقدم عليها إلا عمر الذى يتطرف فى التعبير عن إيمانه ، حتى مع نبى هذا الإيمان ، لأن إيمانه بات يملك عليه مجموع نفسه ويحركها بمافيها من قوى فطرية .

ونعود لرواية ابن هشام لكلام عمر :

فقلت له :

ـ يا رسول الله ! أتصلى على عدو الله ابن أبى بن سلول ؟ القائل كذا يوم كذا ، والقائل كذا يوم كذا ؟

ورحت أعدد أيامه ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يبتسم ، حتى إذا أكثرت قال :

ـ يا عمر أخر عنى ! إنى قد خيرت فاخترت ! قد قيل لى استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ! فلو أعلم أنى إن زدت على السبعين غفر له لزدت !

قال عمر :

ـ ثم صلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومشى معه حتى قام على قبره ، حتى فرغ منه ، فعجبت لى ولجرأتى على رسول الله صلى الله عليه وسلم . والله ورسوله أعلم ! فوالله ماكان إلا يسيرا حتى نزلت هاتان الآيتان :

ـ « ولا تصلّ على أحد منهم مات أبدا . ولا تقم على قبره . إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون ! » .

موقف فذ يدل على الاعتداد بالرأى ماكان عمر ليقدم عليه - لو أنه فكر بعقله الموضوعى الذى يشترك فيه كافة الناس - حتى إنه بعد رفض النبى إلحاحه عليه ثاب إلى نفسه يلومها « لأن الله ورسوله أعلم » .

فالذى حركه إذن هذه الحركة العمرية العارمة التى لا تتراجع أمام شىء لم يكن تصرفه من حيث هو عمر الرجل ، بل من حيث هو عمر العقيدة ! عمر « الرأى الألمعى » الذى يعبر عن العقيدة ويجسدها ، وهى مستولية على كيانه كله ، فيندفع - بل قل تدفعه قوة الإيمان التى تلبسته بكيانه كله ، فهو مسخر لها ، وإن كان يبدو أنه يتحرك من تلقاء نفسه . . . فهو لا يتصور للعقيدة وضعا إلا ذلك الوضع الذى يليق بها فى وجدانه .

وموقفه هذا من لدد العداء لعدو الله عبد الله بن أبىّ بن سلول ، يفسر لنا موقفه الذى ذكرناه آنفا من العاص بن وائل السهمى حين ذكره ابنه عبد الله بيده الطولى عليه إذ أجاره وحماه من التهلكة المحققة على يد رجال قريش ، فكان رده على ثناء ابنه عليه :

- لا جزاه الله خيرا ! . . .

فلا رحمة عنده ولا تفكير فى رحمة لمن عادى الله وحارب دينه !

وسنرى له مواقف أخرى من هذا القبيل هى الدليل القائم على أنه صار رجل العقيدة بتركيبته الجبارة ، تسخره العقيدة فلا يستطيع لذلك عدلا ولا صرفا !

وها هنا ميدان بطولته الجديد ، بخريطته النفسية الجديدة . . .

وهنا لابد لنا من وقفة نتأمل فيها « الخريطة النفسية » الجديدة لعمر ، الذى قمع حيويته فى الفعل ، وإن لم يصادر حيويته فى الانفعال ! فهو بحكم تكوينه ذو طاقة خارقة كأنها جوف بركان يأبى إلا أن يقذف بالحمم . وقد اتجهت هذه الطاقة العارمة - بعد أن سدت فى وجهها منافذ « الفعل »

الفورى الجامح ـ إلى مجال إعمال الرأى وتعميق الإيمان بالقيمة العليا التى آمن بها ، ولا يطيق أن يراها فى غير مكانتها التى تليق بها : فوق الجميع . وبذلك تحولت طاقاته جميعا إلى خدمة « المبدأ » بالرأى المتطرف فيه .

« ورجل المبدأ المتطرف » هذا هو ما صار إليه عمر فى « خريطته النفسية الجديدة » . فلم يعد ـ كما كان رجل مناوشات ومنازلات فردية ، بل هو أولا رجل رأى يريد للجميع أن يشاركوه فيه . وهو بطبع « البطل » أن يكون متطرفا لا يعرف فى المبدأ هوادة ولا مساومة .

ولذا وجدناه فى هذه المرحلة ـ مرحلة البطل المطبوع المروض ـ لا يكف عن التطرف ولا عن حمل الآخرين على اتباع رأيه ، لا يستثنى من ذلك نبيه وقائده . ذلك أن عقيدته صارت لباب كيانه كله ، ولا يتصور لها وضعا دون الصدارة والسيادة المطلقة ، حسبما يحسبها هو . . . ويغضب لكل تهاون فى هذا الأمر غضبا يملك عليه نفسه ولا يستطيع له كبحا . فطبعه البطولى يأبى له الهوادة والمصانعة .

وهو بعد الترويض لم يصبح بعد أداة طيعة تماما ، فمزاجه المستقل المتطرف يأبى عليه ذلك . وإذا اضطر للانقياد عن غير اقتناع كان انقياده تسليم من يقول :

ـ الله ورسوله أعلم !

فهو تسليم غيبى ، على خلاف ما يشهد به حسه وعقله . تسليم فيه إكراه للعقل ، وما أبعد هذا عن الاقتناع !

إلا أن عملية الترويض تستمر ، لتأخذ منه بعض ما فيه ، وتعطيه بعض ما فيها . ولكن عقله المستقل ، وطبعه المتطرف يظلان على فرديتهما ، مع ازدياد فى قابليته للاذعان للقيادة عندما تصر على مخالفته

والانصراف عن رأيه ، ليتم بذلك انضباطه الإيمانى . . . لأن قضية الإيمان صارت لباب كيانه ومحور تفكيره المستقل على كل حال . . .

ولسوف يؤهله ذلك بعد مرحلة « رجل الدولة » ، إلى أن يكون نمطا فريدا من الحاكمين . . .

الثاني ، وخرج حتى أتى رسول الله ، فجلس بين يديه ثم

يا محمد ، اجتمعت أوشاب الناس ، ثم جئت بهم إلى بيضتك

... إنها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل ، قد لبسوا جلود

يعاهدون الله لا تدخلها عليهم عنوة أبداً . وأيم الله لكأني بهؤلاء

قد انكشفوا عنك غداً !

وما يوم الحديبية بسر ! . . .

ولسنا هنا نكتب سيرة تطرد الكتابة فيها مع تعاقب الأحداث وتعاقب الأيام والتواريخ ، بل نحن نتعقب الملامح النفسية لذلك البطل المطبوع ، لنضع أيدينا على ما يؤيد رأينا أنه كان رائد مدرسة الرأى، وأنه كان قدتم ترويضه لا لشخص - ولو كان النبى - بل للعقيدة نفسها ، حتى ركبته واستولت على مجموع نفسه فصار مطيتها ، أو آلتها ، أو أداتها . ما شئت قل ! فهى التى توجهه حيث يرى أن ذلك أليق بها وبقدسيتها المطلقة . ومن ثم تطرفه فى الانتصار لها ، بكل المقاييس التى يملكها رجل من البشر . . . لا يقيم لغير ذلك وزنا ، ولا يحسب لغير ذلك حسابا . . .

ولذا نذكر هنا ما كان يوم صلح الحديبية ، وهو سابق فى التاريخ كما ذكرناه من موقفه يوم وفاة عبد الله بن أبى بن سلول . ولكننا نفرد لذلك اليوم هذا الفصل ، لأنه بارز بالحمية للعقيدة من حيث هى قضية ، لا بالحمية والسخط على فرد من أعدائها . . .

ونرجع إلى ما كتبه ابن هشام ، فنذكره ببعض الإيجاز :

كان رسول الله قد قصد مكة معتمرا وزائرا ، لا يريد حربا ، فلما سمعت قريش بذلك أبوا أن يدخل عليهم عنوة، وكثرت رسلها إليه وهو يكرر على كل رسول نيته ، ويرى الرسل الهدى التى أعدها لتكون أضحية ، فيرجع الرسول إلى قريش ، ليبعثوا رسولا آخر وهم غير مصدقين ، يريدون مزيدا من الاستيثاق والضمان ، إلى أن بعثوا إليه « عروة

ابن مسعود الثقفى » « فخرج حتى أتى رسول الله ، فجلس بين يديه ثم قال :

ـ يا محمد . أجمعت أوشاب الناس ، ثم جئت بهم إلى بيضتك لتفضها بهم . إنها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل ، قد لبسوا جلود النمور ، يعاهدون الله لا تدخلها عليهم عنوة أبدا . وأيم الله لكأنى بهؤلاء وقد انكشفوا عنك غدا !

فسبه أبو بكر ، وكان قاعدا خلف النبى قائلا :

ـ امصص بظر اللات ! أنحن ننكشف عنه ؟

« ثم جعل عروة يتناول لحية رسول الله وهو يكلمه . والمغيرة بن شعبة واقف على رأس رسول الله فى الحديد ، فجعل يقرع يده إذا تناول لحية رسول الله ويقول :

ـ اكفف يدك عن وجه رسول الله قبل أن لا تصل إليك !

فيقول عروة :

ـ ويحك ! ما أفظك وأغلظك !

فتبسم رسول الله ، وقال عروة :

ـ من هذا يا محمد ؟

قال :

ـ هذا بن أخيك المغيرة بن شعبة !

فقال :

ـ أى غدر (أيها الغادر) ! وهل غسلت سوءتك إلا بالأمس ؟ ! . . .

وهـذا السياق الـدرامى يجسم الجـو المتـوتر بين قريش والمسلمين فى الحديبية ، وتحفز المسلمين وقد لبسوا الحديد وارتدوا كل الأهبة لدخول مكة عنوة إن لزم الأمر . .

وانصرف عروة وقد أكد له النبى ما جاء له ، ثم يروى ابن إسحق عن بعض أهل العلم : « إن رسول الله دعا « خراش بن أمية الخزاعى » فبعثه إلى قريش بمكة وحمله على بعير له يقال له الثعلب ، ليبلغ اشرافهم ما جاء له ، فعقروا (ذبحوا) به جمل رسول الله ، وأرادوا قتله ، فمنعته الاحابيش فخلوا سبيله حتى أتى رسـول الله (راجلا) . وهو إمعان من قريش فى العنجهية والتحدى ، زاد المسلمين غيظا وتحفزا واصرارا . . .

وبرواية مرفوعة السند إلى ابن عباس يقول ابن اسحق :

« إن قريشا كانوا بعثوا أربعين رجلا منهم أو خمسين وأمروهم أن يطيفوا بمعسكر المسلمين ، ليصيبوا لهم من أصحابه أحدا ، فأخذوا أخذا . فأتى بهم رسول الله فعفا عنهم وخلى سبيلهم . وقد كانوا رموا عسكر رسول الله بالحجارة والنبل . . .

وهو عدوان أو إصرار على العدوان من جانب قريش ، فأراد النبى أن يزيد فى طمأنينتهم ، يقول ابن هشام : « فدعا عمر بن الخطاب ليبعثه إلى مكـة » والسفارة كما ذكرنا كانت من مهامه فى الجاهلية فيبلغ عنه اشراف قريش ما جاء له ، فقال :

- يارسول الله ! . . . لقد عرفت قريش عداوتى لها وغلظتى عليها ، ولا آمنهم على نفسى ، وليس فيها من يحمينى منهم ، ولكنى أدلك على رجل أعز بها منى : عثمان بن عفان !

فدعا رسول الله عثمان فبعثه إلى أبى سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب . « وانه انما جاء زائرا للبيت العتيق » .

وهنا نجد عمر قد صدق الرأى فى نفسه ، وصدق النصح لنبيه ، فهو أدرى النـاس بما فيه من غلظة طبع ، لا تصلح لبث الطمأنينة فى نفوس أعداء متشككين .

واحتبست قريش عثمان ، أشبـه بالـرهينـة ، فبلغ النبى أنه قتل ، وعندئذ ـ كما يقول ابن اسحق :

« قال النبى : لا نبرح حتى نقاتل القوم ! » .

ودعـا النـاس إلى البيعـة ، فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة . لم يبايعهم رسول الله على الموت ، بل بايعهم على ألا يفروا . فبايع الناس جميعا إلا واحدا هو الجد بن قيس ، ثم أتى رسول الله أن الذى ذكر من أمر عثمان باطل .

« ثم بعثت قريش سهيل بن عمرو إلى النبى » ، قالوا له :

ـ ائت محمـدا فصالحه . ولا يكن فى صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا . فو الله لا تحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبدا . . .

« . . . وتكلم سهيل فأطـال الكـلام ، وتـراجعـا ، ثم جرى بينهما الصلح . . الصلح » هذا أمر شديد الوقع فى هذا الموقف على المسلمين . فناهيك إذن بعمر بن الخطاب !

يقول ابن اسحق :

« فلما التأم الأمــر ولم يبق الا الكتاب ، وثب عمــر بن الخطاب فأتى أبا بكر فقال :

ـ يا أبا بكر ! أليس رسول الله ؟

قال :

ـ بلى !

قال عمر :

- أو لسنا بالمسلمين ؟

قال - بلى !

قال عمر :

- أو ليسوا بالمشركين ؟

قال :

- بلى !

قال عمر :

- فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟

قال أبو بكر :

- يا عمر ! الزم غرزه ! فانى أشهد أنه رسول الله .

قال عمر :

- وأنا أشهد أنه رسول الله !

ولم يشف أبو بكر غليل عمر ، فذهب إلى « صاحب الشأن » الأصلى نفسه .

يقول ابن اسحق :

ثم أتى عمر رسول الله فقال له :

- يا رسول الله ! ألست برسول الله ؟

قال :

- بلى !

قال عمر :

ـ أو لسنا بالمسلمين ؟

قال :

ـ بلى !

قال عمر :

ـ أو ليسوا بالمشركين ؟

قال :

ـ بلى !

قال عمر :

ـ فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟

قال :

ـ أنا عبد الله ورسوله . لن أخالف أمره ولن يضيعنى !

وعندها رضخ عمر ! رضخ لا عن اقتناع ، بل عن إذعان . فلم تزل نفسه ثائرة بالسخط ، ولن تزال ، حتى بعد كتابة عقد الهدنة . فقد حسم النبى الأمر حين قال له :

ـ أنا عبد الله ورسوله ، ولن أخالف أمره !

إنه أمر إلهى إذن ! وما دام يشهد أن محمدا رسول الله ، فلا مفر من التسليم والاذعان . . . وإن بقيت فى نفسه على المشركين موجدة أشد . فالعهد مصون بالأمر الإلهى . أما الرضا عن مهادنتهم فحاشا !

وها هنا عمر بأكمله بماهو رجل الرأى المستقل ، وبطل العقيدة التى « تقمصها » وتقمصته ، ولبسها ولبسته ، حتى صارت من وراء دفعات حياته الجبارة بأسرها .

فالبدهى عنده أن تكون كلمة عقيدته هى العليا ، وأن يكون المؤمنون بها هم الأعلون . أما أن يكون من شروط هذه الهدنة غير المفهومة :

« هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو : اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين ، يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض » .

إلى ها هنا والأمر قد يحتمل ، أما ما يلى هذا :

« . . . على انه من اتى محمدا من قريش بغير إذن وليه رده عليهم . ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يردوه عليه ! . . . » .

بهذا يكون المسلمون ـ فى إحساس عمر ، وكل مسلم له غيرة وحمية ـ قد أعطوا الدنية فى دينهم ، ورضوا بالضيم والخسف ! ودون هذا عند من كان كعمر تخر الجبال الرواسى صعقا !

هاهنا تناقض يؤذى منطق عمر ، ذلك المنطق الذى لبس العقيدة ولبسته العقيدة ، فصار لا يعمل إلا بها ولها . ولا يمكن أن تفسره أسباب يقبلها عقله ، فثار لعقله اليقظ المستقل ولإيمانه ، وراح يواجه بتلك الأسئلة المنطقية صاحب الرسالة نفسه ، ويكرر عليه السؤال الضخم الذى يكاد ينفجر به رأسه :

ـ لماذا ؟

ولم يكن هناك أى سبب موضوعى يمكن أن يفسر هذا الموقف . أو هذه الهدنة بشروطها الظاهرة الاجحاف . ولم يسكت عمر عن الصراخ بسؤاله الثائر : « لماذا ؟ لماذا ؟ » إلا عندما قال له نبيه أن السبب ليس من مستوى المنطق البشرى ، بل هو أمر إلهى !

لا حيلة فى هذا الأمر إذن . وإن بقيت طبيعة البطل الذى لا يقبل الضيم تتقلب على مثل الجمر . .

ولكن المرارة والاحباط لم يفارقا وجدان عمر . وزادهما اتقادا أن تطبيق هذه الشروط المجحفة بدأ على الفور فى صورة مفاجئة مأسوية ، يرويها ابن هشام :

« فبينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يكتب الكتاب هو وسهيل بن عمرو ، إذ جاء أبو جندل ، وهو ابن سهيل بن عمرو ، يرسف فى الحديد ، قد انفلت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد كان أصحاب رسول الله خرجوا وهم لا يشكون فى الفتح ، لرؤيا رآها رسول الله ، فلما رأوا ما رأوا من الصلح والرجوع ، وما تحمل عليه رسول الله فى نفسه دخل على الناس من ذلك أمر عظيم حتى كادوا يهلكون ! فلما رأى سهيل بن عمرو ابنه أبا جندل قام إليه فضرب وجهه ، وأخذ بتلبيبه ، ثم قال :

- يا محمد ! قد لجت (تمت) القضية بينى وبينك قبل أن يأتيك هذا (مستنجدا بك) . فقال النبى :

- صدقت !

فجعل سهيل ينتر ابنه أبا جندل (يجذبه جذبا شديدا) بتلبيبه ، ويجره ليرده إلى قريش . وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته :

- يا معشر المسلمين ! أأرد إلى المشركين يفتنونى عن دينى ؟
فزاد ذلك الناس إلى ما بهم (من الغم) . فقال رسول الله :

- يا أبا جندل ! اصبر واحتسب ! فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا ! انا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحا ، وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله ، وإنا لا نغدر بهم ! »

ولم يطق عمر صبرا . أجل انه لا يستطيع ان يخرج على ما أمر الله به نبيه ، ولكن النار المتقدة فى داخله كالبركان لابد أن تلتمس لها مخرجا ، بالدوران ما أمكن حول هذا « العهد » الملزم له وللمسلمين ، مخرجا لا يكون فيه غدر أو خرق للميثاق . . . .

يقول ابن هشام فى أعقاب ذلك :

« فوثب عمر بن الخطاب مع أبى جندل يمشى إلى جنبه (وأبوه سهيل ابن عمرو يسوقه نحو مكة) ويقول له :

- اصبر يا ابا جندل ، فانما هم المشركون ! وإنما دم أحدهم كدم كلب !

يقول ذلك وهو يدنى قائم سيفه منه . ويقول عمر :

- رجوت أن يأخذ السيف فيضرب به أباه ! ! . . فضن الرجل بأبيه ، ونفذت القضية ! . . .

مسلك فذ ، لا يسلكه إلا عمر ، الذى يهدر ما بداخل نفسه من الحمية والاحباط والغيرة على « القضية » التى صارت هى كل حياته كما تهدر البراكين .

فهذا التقمص لروح العقيدة هو الذى ألغى فى وجدانه كل حساب إلا إعلاء كلمتها وسلطانها ، حتى غدا دم الأب المشرك عنده لا يزيد فى قيمته عن دم كلب . . .

وهذا خليق أن يلفتنا إلى ملحظ يؤكد ما قلناه عن استيلاء العقيدة على كل نفسه ، حتى صار بتكوينه النارى أداة لها ، بحيث تصطبغ تصوراته لها بطبعه المتميز ، فهى وحدها كل شىء ، وكل ماعداها لا شىء . . .

تصور عمرى ، ومسلك عمرى ، من عمر الرجل ذى المزاج الحاد المحتدم ، ومن عمر البطل الذى يأتى بخوارق الأفعال وهو يراها من بدائه الأمور .

ولست أظن هذا يتفق مع ما جاء فى سورة لقمان مثلا ، عن معاملة الآباء المشركين :

- وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم ، فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا ! . . .

ولكنه عمر ، فقدسية العقيدة المطلقة عنده ، جعلته يأسف لأن الفتى ضن بدم أبيه ، ولم يره كدم كلب !

لو كان فى مكانه كان يضن بأبيه ، أو يتردد فى أمره !

هذه الطبيعة النارية التى لا ترى الدنيا وما فيها إلا بمنظار واحد ، هو منظار العقيدة التى لبسته ولبسها ، وصارت محرك كيانه الوحيد ، هى بعينها التى تفسر لنا موقفه لحظة قيل إن محمدا قد مات .

حتى قانـون الطبيعة ، وهو الموت لكل حى ، لم يكن له وزن أمام حماسته المتطرفة لهذه العقيدة ، فأبى أن يتصور - مجرد تصور - أن نبى هذه العقيدة يمكن أن يموت كما يموت سائر الناس .

ولست أوافق من يقول أن عقل عمر غاب عنه فى تلك اللحظة ، بل أقول أن طبيعته التى صارت آلة جبارة لإيمانه ، لا تقيس الأمور إلا بمقياس قيمته وقوته المطلقة . فمقام عقيدته عنده أن نبيها « ليس معقولا » بمنظور هذه العقيدة المطلقة المكانة والسلطان ، ان يجرى عليه ما يجرى على سائر الناس !

يقول ابن اسحق برواية مرفوعة إلى أبى هريرة :

قام عمر بن الخطاب فى الناس فقال :

- ان رجالا من المنافقين يزعمون ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد توفى . وان رسول الله صلى الله عليه وسلم ما مات ! ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران ، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ، ثم رجع إليهم بعد أن قيل قد مات ! ووالله ليرجعن رسول الله صلى الله عليه وسلم

كما رجع موسى ، فليقطعن أيدى رجال وأرجلهم زعموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مات !

وجدانه المتقد بأن عقيدته هى قانون الكون الأعلى ، الذى لا يخضع لأى حدود أو قيود والذى تخضع له كل الحقائق بلا استثناء ، هو الذى جعله يوقن أن فى نبأ موت النبى « دسيسة » من المنافقين ، وكان ذلك كافيا كى يثور تلك الثورة العمرية . . .

ولكن أبا بكر ، بطبيعته الواقعية ، وتفكيره العملى أقبل - كما يقول ابن هشام برواية أبى هريرة :

« أقبل حتى نزل على باب المسجد ، وعمر يكلم الناس ، فلم يلتفت إلى شىء ، حتى دخل على رسول الله . . . ثم خرج وعمر يكلم الناس ، فقال :

- على رسلك يا عمر ! انصت !

فأبى عمر إلا أن يتكلم . . .

أليست ثورة غضب عمرية ؟

فلما رآه أبو بكر لا ينصت أقبل على الناس ، فلما سمع الناس كلامه أقبلوا عليه ، وتركوا عمر ، فحمد الله وأثنى عليه . . ثم قال :

- أيها الناس ! إنه من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات . ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت .

ثم تلا هذه الآية :

- وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟ ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا ، وسيجزى الله الشاكرين . . .

ثم يروى أبو هريرة عن عمر أنه قال :

- والله ماهو الا أن سمعت أبا بكر تلاها فعقرت ، حتى وقعت إلى الأرض ما تحملنى رجلاى . . . وعرفت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مات !

هنـا أيضا كل تكوين عمر الفذ ، الذى لا يرى إلا أن إيمانه قانون الكون الأعلى ، الذى يخضع له كل قانون ، حتى قانون الموت .

فبدافع من الغيرة والغضب لهذا القانون رفض فكرة موت محمد . أما وقد ذكر أبو بكر الناس بتلك الآية ، فإيمانه نفسه أرغمه على التسليم بأن محمدا لابد ميت كما يموت كل حى . . .

وألفى نفسه يسقط من الإيمان على المستوى المطلق على الطريقة العمرية ، إلى الإيمان على المستوى الواقعى الملزم بنص القول الإلهى . . .

وهو سقوط من شاهق المثالية ، إلى أرض الواقع . عبر عنه تكوينه تعبيرا جسديا ماديا بوقوع هيكله الجبار على الأرض حرفيا ، « فما تحمله رجلاه ! » .

وأدرك عمر بهذا الوقوع أنه دخل مرحلة جديدة ، يجب آن يحشد فيها قواه الخارقة كلها لنصرة هذا الإيمان ، الذى زادت مسئوليته عنه بانقطاع خبر السماء .

الآن لا أمر إلهى فى وقائع معينة كما كان الحال يوم الحديبية . الآن لم يبق إلا قانون الإيمان الوارد فى القرآن وعلى ولى الأمر أن يحسن تكييف الحكم بمقتضاه على الوقائع المعينة التى تستجد .

ها هنا إذن بدأت مرحلة المسئولية الكاملة الملقاة على عاتق رجال الدولة الإسلامية .

وأول ما تحتاج إليه الدولة فى هذه اللحظة ، هو اختيار « ولى الأمر » الذى تسند إليه مقاليد المسئولية الأولى بعد وفاة النبى .

وكان يوم السقيفة الذى نازع فيه الأنصار المهاجرين ، ثم مالوا إلى اقتسام السلطة معهم ، فقالوا « منا أمير ومنكم أمير» . . . وحسم أبو بكر الموقف حين قال لهم : منا الأمراء ومنكم الوزراء ، فلن تدين العرب الا لهذا الحى من قريش !

ضبط أبو بكر الموقف ، ورده إلى نصابه . ومن أقدرُ من أبى بكر على سياسة الأمور ، وله هذه الحكمة ، وهذه الكياسة ، وهذا الحزم ؟

انتهى الأمر بأن بسط أبو بكر يده فبايعه عمر ، وبايعه أبو عبيدة ، وأقبل الأنصار أنفسهم على البيعة ، مع المهاجرين .

وتنفس عمر الصعداء . فقد تمت البيعة لأبى بكر . وصار فى موضع المسئولية الأولى . صارت المهمة الأولى التى شعر بها عمر هى دعم أبى بكر . وأول دعم فى هذه الأيام الأولى إنما يكون بالتمكين لمكانته وسلطته ، كى تغدو محل اتفاق تام شامل بين وجوه المسلمين وهم أصحاب النبى ، فلا يشذ عنها أحد . فإن بدرت من أحد بادرة شقاق فى سلطة أبى بكر ، فذلك كاف لاستثارة كوامن العنف فى عمر ، فالموقف بحاجة إلى الحزم ، وأخذ المنشق بأشد القسوة ، لأن السلطة العليا ينبغى ألا تكون موضع خلاف .

وكان على مشغولا أثناء اجتماع «السقيفة» بتجهيز النبى . أليس ابن عمه ، ومربيه ، ووالد زوجته ، وجد أبنائه ؟

ويروى الرواة أن عمه العباس حفزه على أن يبادر باثبات حقه فى ولاية الأمر ، وعنف عليه حتى أنذره إن لم يفعل « ليكونن عبد العصا ! » ولكن أبا الحسن استنكر واستكثر أن يدع تجهيز النبى لأى شأن من الشئون . فلما بايع الناس أبا بكر ، اعتصم ببيته مع فاطمة الزهراء ، ولم يبايع . . .

أجل إنه لم يطلب إلى أحد أن يبايعه ، ولكنه موقف قد يدعو الناس

إلى النكـول عن بيعـة أبى بكر ، وهى فرصة للمنافقين كى يوسعوا شقة الخلاف فى جبهة المسلمين فى هذا الظرف الحرج .

وأدرك عمر حساسية المسألة ، وانبرى لها بطبعه الحاد الذى لا يعرف اللين ، بل هو طبع نارى إذا استثير كان كالبركان . فذهب إلى دار على وفـاطمة ، وصاح أمام الدار بصوته الجهورى القاصف كالرعد ، وهو فى ذروة الغضب ، يتوعده لئن لم يخرج ويبايع أبا بكر على ملأ من الناس فى المسجد ، ليحرقن عليه الدار !

موقـف عنـيف غاية العنف ، ومـع من ؟ مع والـد حفيدى النبى الـوحيدين ، الحسن والحسـين ، اللذين كانا يركبان ظهره وهو ساجد ، فلا ينهض من سجوده حتى لا يعجلهما عن النزول !! . . .

ولكن ضخـامـة وضع على ، رأس آل البيت ، هو الذى يكمن فيه الخـطر أكـبر الخطر على « مصلحة الدولة العليا » كما نقول نحن فى هذه الأيام ، باثارة الفرقة على مسند « الرئاسة العليا » ، فينفرط عقد الدولة ، فتكـون نهاية الدولة الإسلامية ، هذه الدولة التى صارت بعد وفاة النبى أمانة فى أعناق أصحابه .

جسامة هذا الخطر ، خطورة صاحب هذا الموقع ، هما التبرير الكافى ، بل الدافع الذى تجلى لبديهة عمر الملهمة أنه يحتاج إلى الحسم بلا هوادة .

وإذا استقـر الأمـر لأبى بكر فى المدينة ، دخل دور أبى بكر مرحلة جديدة ، غير مرحلة التمكين وجمع الكلمة ، هى مرحلة الحياطة والصيانة اليقظة . وهى مرحلة صدق أبو الطيب فى تصويرها بعد قرون :

« الرأى » قبل شجاعة الشجعان   هو أول وهى المحـل الثـانى !

فلازم أبا بكر ملازمة المشير ، الذى يدرك أن « التصرف » السديد هو الذى حل الآن محل « الوحى » فى كل ما يستجد من المواقف . أجل هناك

الكتاب والسنة . ولكن الشأن فيهما شأن كل ما هو « مبدأ كلى أو قانون عام » لابد عند استلهامه للتطبيق على المواقف والأحداث الجزئية من « التصرف السديد » الذى يراعى الظروف والملابسات .

وأبو بكر لم يتوان فى إعلان سياسته التى تتفق وطبعه : إنه « متبع لا مبتدع » . . . فألزم ما يلزمه ، وأحوج ما يحتاج إليه ، هو العقل « المبدع » ، المتصرف ، النابع فى آرائه عن التشبع التام بالمبدأ أو القانون أو العقيدة ، فهو قد تشبع بروحها ، ويتصرف فى تأويلها من جهة هذا الروح ، وعلى النحو الذى لا يتصور أن ثمة ما هو أليق بتلك العقيدة وما هو أكرم لها منه .

ورائده وهو فى موضع « المسئولية الثانية » هو الحرص قبل كل شىء على « عدم تصدع » الدولة بعد وفاة النبى .

وهنا نرى فى عمر « الجبار » صورة قد يراها غير المتدبر غريبة على جبروته وعملاقيته ، هى « التضامن » الشديد لرئيس الدولة ، مع بذل غاية جهده فى النصح له بما يتراءى لعقله الابداعى من رأى ، تاركا له القرار . فالمسئولية الأولى والنهائية له دائما .

لذا عندما تشدد أبو بكر فى مسألة الزكاة ، عرض عليه « الرأى الآخر » ، وهو « التساهل » فلم تعد دولة الاسلام مؤيدة بالوحى وبالنبى ، فلئن كانت القبائل لا تجد غضاضة فى أداء الزكاة للنبى شخصيا ، فهم يرونها أشبه بالإتاوة إذ يؤدونها لابن أبى قحافة ! فهو يخشى أن ينفرط أمر الدولة لهذا السبب فينضم من يرفضون الزكاة إلى من ارتدوا عن الاسلام جملة ، فيرتد معظم القبائل ، ويتسع الخرق على الراتق . . .

وها هنا نرى منظرا عجبا ! نرى أبا بكر القصير النحيل الأجنأ (أى المنحنى الظهر بعض الشىء) يثب إلى أعلى كى يتعلق بلحية العملاق عمر بن الخطاب ، ويشتد فى سبه :

- ثكلتك أمك يا بن الخطاب ! أجبارٌ فى الجاهلية وخوار فى الإسلام !

فلا يغضب عمر الغضوب ، ولو غضب لكانت بطشة واحدة من يده كافية للقضاء على الشيخ النحيل القصير . كلا ! لم يغضب بل تطامن له تطامن الجمل الهائل يجره من خطامه صبى صغير ! . .

أين ذهب جبروت هذا الجبار ؟ وأين ذهب طبعه النارى ؟ وكيف اجترأ عليه أبو بكر هذا الاجتراء ، وهو آمن من بطشه أو تغير قلبه منه ؟

أسئلة تحتاج منا إلى وقفة تأمل ، نتفهم فيها هاتين النفسيتين ، تفهما يزيدنا معرفة بالنفس البشرية عموما ، ولا سيما فى هذه الطبقة من ذوى الهمة والمضاء وما يكون بينهم من تفاهم تلقائى خفى .

ونبدأ بجبروت عمر ، والتساؤل عنه أين ذهب فى مثل هذا الموقف ؟

الحق أن شيئا طغى على جبروته ، واحتل الصدارة فى نفسه ، ألا وهو الشعور بفداحة المسئولية عن الدولة الاسلامية التى بدأت تهب عليها رياح المخاطر الهوجاء من كافة أطرافها . ولو طاوع طبعه النارى الأصيل ، لكانت استجابة التلقائية إعصارا من الغضب والحمية والأنفة أن يستصغروا شأن صاحبه وشأنه بعد وفاة النبى ولو لقى فى هذا السبيل حتفه ، إلا أن شعوره بالمسئولية التى تنوء بها الجبال عن « سلامة الدولة » بأى ثمن ، رجحت كفتها على كفة جبروته وطبعه النارى . فالأمر هنا ليس أمر كرامة شخصية وعنجهية ، بل أمر « سلامة تراث محمد » الذى صار أمانة فى أعناق المسلمين من أصحاب النبى ، لذا عرض على الخليفة « الرأى الآخر » ، كى لا يغيب عن نظره وهو يتخذ القرار . ولذا توارى « طبعه النارى » إكبارا منه لهذه المسئولية ، مدركا أن « صديقك من صدقك لا من صدقك أو سايرك » . . . ورأى أبا بكر متشددا ، فقام هو بدور « المتساهل » .

أمــا كيف اجترأ أبـو بكـر ، وهـو القـزم النحيل بالقياس إلى هذا العملاق ، فها هنا ملحظ غاية فى الطرافة عن ضخامة الثقة بالود والصداقة المخلصة التى يحس أبو بكر بها إزاء عمر . إنها ثقة تتحمل أشد العنف فلا تهتز .

وكان أبو بكر منذ البداية واثقا من أن له هذه الدالّة على عمر ، فنراه فى الأيام الأولى ، عندما طلب أجلة الصحابة ومشيختهم ولا سيما الانصار منهم من عمر ان يذهب إلى أبى بكر ويبلغه رسالةً منهم ، إن كان مصرا علي إنفاذ هذه السرية إلى تخوم الروم ان « يولى أمرهم رجلا أقدم سنا من أسامة بن زيد الذى لم يكن قد بلغ العشرين من عمره بعد» وما كاد عمر يبلغ هذه الرسالة ـ وما على الرسول إلا البلاغ :ـ حتى شده أبو بكر من لحيته (وهو الدعامة الكبرى فى بيعته بالأمس فقط !) وقال له :

ـ ثكلتك أمك (عدمتك) يا بن الخطاب ! استعمله رسول الله ﷺ وتأمرنى أن أنزعه !

إنها الخشونة الظاهرة فى التعامل منذ البداية ، وهى خشونة أدل على الدالة ورفع الكلفة ومنتهى الثقة بمتانة الصداقة من كل تلطف ومجاملة . فقد يكون التلطف فى الكلام دليل حذر وخشية لنتائج الخشونة لدى الطرف الآخـر . أما فى بيئة البداوة ، فأحرى أن تكون الملاحظة والتلطف دليل « توجس » من « عدو فى ثياب صديق » . . .

ونحن نرى بين « أبنـاء البلد » أمثال هذه الخشونة فى القول والاشارة ، عند تجاوز المودة بينهم لمراسم الشكليات التى توجب تبادل التقدير . بل قد يكون شىء من القول الجارح أدل على « الأخوة » من كل ثناء .

كان أبـو بكـر يفهم ويعـرف جيدا مكـانتـه عنـد عمـر ، وضخامة « رصيده » عنده ، بحيث لا يتأثر هذا الرصيد بأى مقدار يسحبه منه !

لكن ما أن يتخذ أبو بكر قراره ، حتى يكون عمر أشد العاملين على إنفاذه ، وأعنف المبادرين إلى عقاب من يخرج عليه . . .

وهكذا كان اختلاف طبع عمر من طبع أبى بكر ، وكان اختلاف منهج عمر الإبداعى « المتصرف » عن منهج أبى بكر « المتبع » ، عضدا وسندا لأبى بكر وعونا له ، لا تقويضا لمضائه وفتا فى عضده .

حتى ماكان من أمر خالد بن الوليد ، حين ظفر بمالك بن نويرة مع ماقيل من إسلامه وقتله ، وتزوج بامرأته على الفور ، فأثار ذلك غضب قريبه عمر بن الخطاب ، ورآه عدوانا واستغلال نفوذ فاحشا ، ولم ير أبو بكر ما يدعو لاغماد سيف سله الله ، فلم يعزل خالدا ولم يحاكمه ولم يفرق بينه وبين امرأة مالك بن نويرة كما يريد عمر .

وكان عمر عنيفا فى سخطه على خالد ، وهجم عليه وهو داخل إلى حضرة الخليفة ، فنزع السهام التى يزين بها عمامته وكسرها وهو يندد على ملأ من الناس بخيلائه ، وبأنه لم يكفه أن قتل امرءا مسلما حتى نزا على امرأته !

ولم يقتنع بما كان من هوادة أبى بكر ، واكتفائه بأداء دية مالك بن نويرة ، ثم رد السبى ، ثم ! أعاد خالدا إلى إتمام حروبه ضد المرتدين . وظل عمر يلح على أبى بكر فى عزله ، إلى أن أمره أبو بكر أن يكف عنه . ولكن غضب عمر لم يسكن ، وظل يندد فى مجالسه بخالد ، ويفتى بأنه يستحق الرجم على الزنا . . .

وقد قيل أن عمر كان يغار من خالد فى سريرته ، أو « لاشعوره » كما نقول نحن بلغة هذه الأيام . ولسنا نرى بشرا معصوما كل العصمة من نوازع الغيرة ، والغيرة بين ذوى القربى معهودة شائعة ، وهى بين الإخوة قد تكون أشد ما يمكن . وخالد من أخوال عمر - لأنه من بنى مخزوم - وهو

أيضا ابن عم أمه حنتمة. ولكننا لا نلجأ إلى تفسير موقفه بالغيرة، ولا نجد تفسيرا طبيعيا آخر لهذه الشدة العمرية فى أمر خالد .

عرفنا آنفا أن عمر بن الخطاب رجل مبدأ ، والعقيدة هى هذا المبدأ الـذى يراه قانون الكون الأعلى . وهو يغار عليه بكل حميته ويغضب أن يمسه ماس ، أيا كان هذا الماس ! وسنرى أن هذه طبيعته عندما يرتقى إلى « المسئولية الأولى » فيهدد جادا كل الجد بعض الصحابة بالقتل ، ان قالوا ان الخمـر حلال ! ويقتص من قواده وعـماله كما يقتص من العامة ، لأن الناس جميعا فى هذه العقيدة سواسية كأسنان المشط . فهو لا يقبل فيها عدلا ولا تعديلا ولا تساهلا ولا صرفا . فلا أحد يند عن سلطان هذا الدين . وهـو يرى أن « غلطة الأمير بلقـاء مشهورة » ، فالقصاص منه أولى من القصاص من غيره ، لأن المناصب تكليف لا تشريف ، وأكرمكم عند الله اتقاكم ، لا أوجهكم واقواكم !

ما عرفناه من نفسية عمر يجعلنا نوقن أن غضبه على خالد ثمرة طبيعية لطبعه وتقديسه لعقيدته . وفى مثل هذا الموقف لا ينقاد عمر لأبى بكر ، بل يرى الصواب فى جانب غضبه لله ولدين الله . فهو اذن ليس غضبا على خالد أساسا ، بل غضبه عليه فرع عن غضبه لله ودينه ! وهو ليس غيرة من خالد ، لأن غيرة عمر الصادرة صدورا طبيعيا جدا من طبيعته وطبعه إنما هى غيرة على العقيدة ، لا من شخص أيا كان .

وظل هذا رأيه ، وإن ترك المسئولية لصاحب المسئولية الأولى ، إلى أن تولى الخلافة فكان أول ما صنعه عزل خالد عن القيادة العامة !

ولم يختلف الـرجـلان إلا فى هذا الأمـر ، لأنـه اختـلاف الـرؤيتـين والنفسيتـين ، فى مسألة لا يمكن أن يتساهل فيها عمر المتطرف فى إيمانه وغيرته عليه . . . فإن شئت قل انه « مثالى » فى ايمانه ، وان أبا بكر عملى فى تطبيق هذا الايمان . . .

أجل إن الشعور بالمسئولية ، وبالفراغ الذى تركه النبى ، هما اللذان جعلا عمر يطامن مثاليته قليلا حين نصح بالتساهل فى أمر الزكاة . فى مقابل بقاء أولئك الناس على إسلامهم بسائر أركانه . أما فى أمر يتعلق بصميم مسئولية القائد العسكرى ، مثل قتل من أعلن اسلامه ، والزواج بامرأته ولم يجف دم زوجها ، فمسألة لا تفسر على أنها تساهل مع جماعة أو قبيلة تريد أن تساوم ، فى وقت ارتدت فيه قبائل كثيرة فطرحت الاسلام جملة ، بل تفسر على أنها « التواء » بشرع الله عندما ينتهكه ذو قوة وبأس شديد . فتداس قدسية الدين الذى سوى بين الناس ، ويصبح الشرع نافذا على الضعفاء فحسب ، وتصبح القوة هى الحق . وذلك ما كان عليه أمر الجاهلية ، فكأنما ارتد أمر الحكم الاسلامى إلى الجاهلية بهذه التفرقة ! إنه الاسلام بالاسم فحسب إذن ، وقيام الجاهلية تحت قناعه ، إذ أن معيار القيم عند الناس هو ما يمسهم منها عند تطبيقها وذلك هو البلاء الذى لا يمكن أن يسكت عليه عمر . عمر الذى يطبق الشرع على الأقوياء قبل الضعفاء ، وإلا عد نفسه دنيئا خسيسا ، يستضعف الضعفاء ، ويتحامى إغضاب ذوى السلطان ! وما هكذا نفسية البطل !

من ها هنا تبدأ البذرة النفسية للبطل الذى سيصبح المثل السائر على الدهر فى بطولة العدل ، والعفة والتقشف وإذلال فتنة السلطان . .

من البطل إلى المثل

« فليبدأ الإمام بتعليم نفسه قبل تعليم الناس . فنحن نعلم الناس بأفعالنا أكثر مما نعلمهم بأقوالنا . ومؤدب نفسه أولى بالاجلال من مؤدب غيره »

عن علي بن أبي طالب

الجهاد الأكبر

ذلك القول الجليل لعلى بن أبى طالب ، ليس اختراعا لمنهج لم يسبق إليه ، ولكنه تعبير بليغ عن حكمة أبدية عرفها عظماء البشر من قبل . . .

ومن عظماء البشر ولا مراء ، بطلنا عمر . وإن له فى نبيه لأسوة . يوم فتح مكة ، ورآه أبو بكر يأخذ بالعناء والشظف فقال له ، هلا خففت على نفسك بعض هذا وقد تم الفتح ، فأجابه النبى :

ـ لقد انتهينا من الجهاد الأصغر ، ولنبدأ الجهاد الأكبر .

والجهاد الأكبر هو جهاد النفس ، أى النفس الدنيا بنوازعها وشهواتها الذاتية الجزئية ، ومن أعظمها ضراوة « فتنة السلطان » .

وهاهو عمر بن الخطاب قد ارتقى إلى المكانة التى ليس فوقه فيها أحد ـ بعد موت صاحبيه ـ إلا الله . فماعسى أن يصنع بها وفيها البطل المطبوع ؟

قلنا آنفا أن بين البطل والوغد شعرة ، هى « الفطرة الخلقية » المركوزة فى الذات العليا ، وهذه الفطرة تجعل للعدل الموضوعى الكلمة العليا على النوازع الذاتية . أما الوغد فيفتن بقوته ، ولا يجد وازعا من فطرة خلقية فيه ، فيتهالك على الطغيان والبغى .

وقلنا آنفا أيضا أن فى عمر هذه الفطرة الخلقية منذ نشأته ، وقبل اسلامه ، وان ذلك ما جعله يدرك قيمة « المعسكر الآخر » وإنه أليق به ، فدخله بطبعه البطولى . وهاهو اليوم أحوج ما يكون إلى بطولته المطبوعة ، وهو على قمة السلطة العليا .

وخليق بنا أن نسأل: ماذا يجدر ببطل مطبوع مثل عمر ـ ان كان له مثل :ـ ان يفكر فيه أو يجنح إليه فى الوهلة الأولى ؟

أول ما يجنح إليه هو اليقظة لنفسه . فقد خبرها من قبل نفسا قوية النوازع ، وتمرس طويلا من قبل بترويضها وانضباطها فى مدرسة سنوات المحنة والاضطهاد .

ـ فى صبر كظيم ـ بمكة ، حين كان مع المسلمين مغلوبين على أمرهم .

ولكن الحال اليوم مختلف جدا ، اختلاف النقيض من النقيض !

ففى سنوات المحنة كان كظيما مغلوبا على أمره ، وفى صحبة النبى ثم أبى بكر كان « منضبطا » يبدى رأيه المستقل ، ويلح فيه ، ولكنه يلتزم بقرار القيادة العليا متى صدر . . .

أما اليوم فهو « القيادة العليا » التى ليس فوقها من دون الله أحد . . .

فالانضباط هنا من نوع مختلف تماما . إنه الانضباط لسلطان الله ، واستلهام القرارات العليا النافذة من ذلك الافق ، بقوة الايمان وقوة العقل .

فأول سؤال كان عمر عسيا أن يسأله نفسه وهو على تلك « القمة » الشاهقة :

ـ أى الناس أنا اليوم ؟ وأى نوع من السلطان سلطانى هذا ؟

ولو لم يكن بطلا بطبعه ، أى لو كان جبارا وغدا كغيره من الجبارين الاوغاد الذين يزدحم بهم تاريخ البشرية ، لما احتاج إلى هذا السؤال ، ولما ساوره شك فى أن هذا السلطان له وحده بصفته الذاتية ، يصرفه على مايهوى ويشتهى ، والسلطان فتنة لصاحبه أى فتنة !

بل نرى عمر بن الخطاب ـ وهو البطل المطبوع ـ يشغله هذا التحديد لوضعه هذا فوق سائر المسلمين فى الدولة الاسلامية . فهذا هو الطبرى يقول :

حدثنى الحارث ، قال : حدثنا ابن سعد ، قال : أخبرنا محمد بن عمر قال : حدثنى قيس بن الربيع ، باسناده الثقات ، عن صاحب رسول الله سلمان الفارسى إن عمر قال له (أى قال لسلمان الفارسى الذى طوف ببلاد كثيرة خبر نظم الحكم فيها قبل حضوره إلى جزيرة العرب ، وقبل اسلامه) :

ـ أملك أنا أم خليقه ؟ ! . .

وهو سؤال دال بذاته على اهتمام عمر بالفصل والتحديد التامين لكُنْهِ وضعه ودوره الجديد ، وهو الحاكم الأعلى لدولة المسلمين ، التى صارت فى عهده أكبر إمبراطورية على وجه الأرض ، شملت إمبراطوريتى الفرس الروم .

ـ أملك أنا أم خليقه ؟ !

وقد وجه السؤال إلى أعلم من يعرفهم عمر بالحكومات وبأحوال الملوك عن خبرة ومشاهدة . ولا ينبيك مثل خبير ! ولذا قال له ذلك الخبير :

ـ إن أنت جبيت من أرض المسلمين درهما أو أقل أو أكثر ، ثم وضعته فى غير حقه ، فأنت ملك غير خليفة !

ويقول سلمان معقبا على ذلك :

ـ فاستعبر عمر ! . . .

وعمر إنما استعبر ، لأنه من الأصل طلب العبرة وسعى إليها . . . محك القضية كلها ، بين الملك والخلافة ، فى كلمات ثلاث : «فى غير حقه» . . .

ولئن تكلم سلمان ـ طبقا لتصوره ورؤيته ـ عن شئون المال وما يجبى من أرض المسلمين ، فإن عمر بذهنه المتوقد خليق أن يخرج بهذا المبدأ من النطاق الجزئى المحدود ـ نطاق المال ـ إلى النطاق الكلى الذى يتعين به كل ما هو حق ، ويباين كل ما هو « فى غير حقه » .

لقد استقر « المبدأ » فى نفسه ، فانتابه الذعر من أن يكون ملكا ، ينفق من أموال الناس درهما « فى غير حقه » ، أى على نفسه ، ومتعته ، وملبسه وزينته ومواكبه ومساكنه . حتى لقد أشفق عليه كثيرون من تطبيقه على نفسه وهو صاحب المسئولية الأولى ، و« الحاكم الأعلى » فى أمور الدنيا والدين ، لما رأوه زاد فى نسكه وتقشفه عما كان عليه وهو ثالث ثلاثة ، وثانى اثنين ، فقال عمر مستنكرا ذلك القول من أصحابه :

ـ أفألقى الله ملكا خائنا ؟ !

وهنا موضع التأمل فى تصوره لوضعه الفذ : إن من سلك مسلك الملوك ، فى متعة نفسه وأبهته وزينته وخيلائه وركوبه أكتاف الناس ، إنما يصرف سلطانه « فى غير حقه » ، فهو إذن خائن . لأنه يخالف « الحق » ويجافيه !

فلئن جعل سلمان الفارسى مفرق الملك من الخليفة ، كيفية التصرف فى أمور المال ، فقد أعرب بذلك عما فى فطرة الناس من الرعية عموما من قياس الأحوال السياسية على ما ظهر لهم ومس حياتهم اليومية العملية منها ، وأوضح ما يكون ذلك فى الأمور المالية والاقتصادية . بحيث تصلح هذه التصرفات المالية مؤشرا طبيعيا لطبيعة الحكم ومدى نظافته ونزاهته ، وهل هو لحساب الحاكم واله وذويه وطغمة أوليائه ، أم هو لحساب الناس كافة . وهل الناس فى هذا النوع من الحكم أو ذاك فى خدمة الحاكم وطغمته ، أم أن الحاكم فى خدمة الناس كافة .

وهذا بعينه هو المقياس الذى قاس به الناس الأمور من قبل ومن بعد ، حتى ضجوا من « تأكيد » الحاكمين لهم ، وقلبهم الوضع الأصلى ـ وهو

وضع الخلافة التى تسوس الناس « بالحق » وحده ، فقال أبو العلاء :

مل المقـام : فكم أعـاشر أمـة ... أمـرت بغـير صلاحهـا أمـراؤهـا
ظلمـوا الـرعية واستباحوا كيدها ... وعـدوا عليهـا هم وهـم أجراؤها

انظر إلى قوله « بغير صلاحها . » . . فإنه مرادف لقول سلمان « فى غير حقه » . وانظر إلى قوله : « وهم أجراؤها » (أى الأمراء) فهذا هو الوضع الأصلى - وضع الخلافة الصحيحة بالحق لا بالادعاء الكاذب - الذى قلبه الامـراء ، واستغلوا فيه المـذاهب ، حتى قال أبـو العلاء « انما المذاهب أسباب » لجلب الدنيا « إلى الرؤساء ! »

فطن عمـر بسليقته إلى أن أكبر الخطر على الحكم السديد الرشيد، الـذى يقلب الخليفـة إلى « ملك خائن » إنـما يأتى من « الذات الدنيا » للحاكم أو « النفس الدنيا » الأمارة بالسوء . وهو يعرف قوة حيويته ، وكم صرف من الجهد كى يروض جموحها ، وله فى ذلك انتصارات باهرة ، من أبرزها ولا مراء قمعه حبها الشديد للخمر ، منذ أيقن أنها محرمة . فكأنما ضغط على زر فى آلة محكمة الصنع ، فانتهى أمر الخمر إلى الأبد . . .

ليكـونن أمره الآن مع نفسه الدنيا فى جميع آفاتها التى تمس مصالح الرعية كسابق أمره مع الخمر !

يقول الطبرى فى نص يمثل هذا القرار أقرب تمثيل :

« حدثنى يعقوب بن ابراهيم ، قال حدثنى اسماعيل بن ابراهيم ، عن يونس ، عن الحسن ، قال : قال عمر :

- إذا كنت فى منـزلة تسعنى وتعجز عن الناس ، فو الله ما تلك لى بمنزلة ، حتى أكون أسوة للناس !

ها هنا الفيصل إذن : ألاّ يتميز فى عيشه عن المعيشة التى تسع كافة الرعية ، وليعف عن كل مالا يتسنى لكافة الرعية ، كى يكون أسوة للناس !

بهذا ، وبهذا وحده يثق الناس بالحاكم ، وبأنه « خادمهم » و« أجيرهم » وليس مولاهم وراكب أعناقهم !

أعمر طويل ، طول رجل ونصف من سواء الناس ؟

إن الثياب توزع على الناس بالسوية . أفيبدو عمر إذن فى ثوب لا يكاد يصل إلى ركبته ، حيث الثياب « المحترمة » تصل إلى الأرض أو تكاد ؟

ليكن ؟

أيغامر عمر بهيبته عندئذ ؟

كلا ! بل يغامر بالأبهة فحسب !

وهو لا يريد الأبهة التى تعرضه لأن يكون « ملكا خائنا » ! بل يريد السمت الذى يجعل الناس يثقون بحرفية العدل وحرفية المساواة فى الحقوق !

والله إنى لأرى عمر فى « بهدلته » وثوبه الذى قد يرفعه ، ولا يبالى إن يتراكم عليه التراب والدقيق ، من جراء ما يحمله على ظهره لخدمة الرعية ، « أوجه » و « أسرى » وأليق من ملوك القيافة والأناقة والرواء فى ملبسهم الفاخر ومظهرهم الباهر !

إنه يعلم أنه الأسوة والقدوة . وهو القائل برواية الطبرى بسنده عن حصين المرى ، أن عمر قال :

- انما مثل العرب مثل جمل أنف اتبع قائده ، فلينظر قائده حيث يقوده ، فأما أنا ورب الكعبة لأحملنهم على الطريق !

لأحملنهم على الطريق ؟

- وما الطريق ؟

هكذا بدأ عمر بسؤال نفسه ، فوجد الطريق هو « الحق » . وهو البطل

الـذى ملأ إيمانه نفسه العليا، فروضت له نفسه الدنيا، وإنه اليوم راض هذه النفس على تبعات القيادة العليا المسئولة ، فلا يعرف ما هو حل له إذا تجاوز ما هو متاح لسائر رعيته .

لا حق له اليوم فى نفسه الدنيا ومتاعها ، بل الحق فيها للحق وحده . للمبدأ الذى آمن به .

وأول مظاهر ذلك الحق هو المعيشة المادية . ولكنه أذكى من أن يقصر الأمر على النسك وعدالة التوزيع . بل إنه ليعلم أن ذلك الحق متعلق بكل مناشط الحياة . فلم يلق به النسك فى أحضان التراخى والانطواء ، بل حفزه على أقصى سعى فى خدمة الرعية فى الصغيرة والكبيرة .

يقول الطبرى :

حدثنى الحارث باسناده عن الشفا ابنة عبد الله ، قالت :

ـ رأيت فتيانا يقصدون فى المشى ، ويتكلمون رويدا ، فقلت « ما هذا؟» فقالوا: نساك! فقلت «كان والله عمر إذا تكلم أسمع، وإذا مشى أسرع ، وإذا ضرب أوجع ، هو والله الناسك حقا ! »

بل إنه قصد بذلك النسك أن يتم ما يقارب الإلغاء التام لسطوة ذاته الدنيا ، ليصبح الفعل كله لذاته العليا ، التى يسيطر عليها ويحركها إيمانه بالحق الأعلى ، وعقيدته التى هى عنده قانون الوجود الأكبر .

وبذلك يضحى « أداة » للايمان والعقيدة ، تتنفس بأنفاسه ، وتفعل بطاقاته ، حتى كأنه « تشخيص » لها فى عالم الإنس .

ولقد بلغ فى نسكه وتقشفه مدى قلَّما بلغه أحد . ولم يكن ذلك لنقص فى حبه مناعم الحس وطيبات العيش . فقد كان ذا جسد فاره وقوة حيوية عارمة ولكن ما عبرنا عنه بأنها « الذات الدنيا » كانت كالفرس القوى الشموس الذى يصعب أن ينقاد الا لفارس له من الشكيمة ما يفوق فى قوته

قوة ذلك الفرس وشموسه . وكانت ذات عمر العليا - التى فيها فطرته الخلقية وإيمانه - هى هذا الفارس الذى لا يشق له غبار ، ولا ينقاد لغيره الجواد الجبار .

فكان فى لبسه الخشن غير المهندم من الثياب ، وفى طعامه الخشن الذى كان يبذل لعامة المسلمين ما هو أفضل منه ، ذلك العنيف على نفسه الذى يرقب نزواتها بحذر ، ويعلم سوراتها وجماحها فلا يفلت لها زماما ولا ينام عن خطراتها طرفة عين .

فلم يكن التزامه بذلك العيش الخشن مبالغة فى التدين ، بل إنه كان يعرف الحلال ويرد نفسه عنه ، كما يرد السجان سجينه المشاغب إلى الخبز القتار ، والحبس الانفرادى فى زنزانة .

وبطبيعة الحال يحتاج الفارس الذى يروض الفرس القوى العنيد إلى العنف والغلظة والجبروت . وهكذا كان عمر غاية فى العنف والغلظة والجبروت على نفسه .

وهو إذ يأخذ نفسه بالغلظة والعنف ، لابد أن يبدو للناس بادى الغلظة والعنف فى تعامله معهم . لأنه - شأن المثاليين جميعا - يرى أن المبدأ الأعلى لابد أن تكون له السيادة بغير هوادة ، عليه ، وعلى الناس كافة . . .

وهذا التجرد من الهوادة يصدم الناس منه ، لما فى ذلك من غلظة ، وإنه - لو علموا - على نفسه لأفظ وأغلظ وأعنف .

ولأنه صار « أداة » صرفا للحق ، فهو يطلب من الناس ذلك ، وقد صار المسئول البشرى الأعلى عنهم ، بعد رحيل صاحبه . وإن الناس ليرونه شديد العنف بهم « فى الحق » . ولأنهم قريبو عهد بالنبوة ، فللحق عليهم سلطان لا يدفعونه ، لذا يتقبلون منه هذا العنف ولا يتمردون عليه . وإن صاروا ميالين إلى نقده وتسقط الأخطاء له . ولكن عمر أشد تيقظا ونقدا لنفسه ، فمن أين يجدون عليه مأخذا ، وهو الأسوة لهم فى كل شىء ؟

وإنا لنراه تنبه بفطرته الألمعية إلى أن دولة الاسلام « دولة إيمان » ، وليست ملكا . تنبه إلى الفرق بين الخليفة و« الملك » ـ وهو لا يرى الملك بذلك المعنى إلا خائنا كذاك الذى كان يأخذ كل سفينة غصباً !

وهو فى يقظته لهذا الفرق حاسم ، أدرك تمام الادراك ان الملك قد يقوم على القهر والغلبة ، كما كان الحال فى الجاهلية عند العرب ، وفى امبراطوريتى الفرس والروم . أما « دولة الايمان » فلا تقوم الا على الاخلاص للعقيدة ، بحيث يكون « الحق » هو مناط السلطة ، ويكون الحكم كله لله .

وإذ الأمر هكذا ، لا محل إذن أن تكون أهواء الحاكم ، من حب أو بغض ، ذات أثر فى الحكم وقرارات الحاكم . . .

أجل انه بشر قوى العاطفة يحب ويكره ، ولكن لا الحب يميل به إلى التحيز ، ولا البغض يميل به إلى التحيف !

أجل هو يحب أهله . وأهله قطعة منه ، كما أن أهل الحاكم الخائن قطعة منه . وحبه لهم ليس أقل من حب الحاكم الخائن لأهله . ولكن عمر لم يعد عمر الفرد ، الحر فيما يحب ويكره ، بل هو « خليفة » ، أداة مجردة للحق ، وليس له من الأمر شىء باعتبار شخصه ، فينبغى إذن ألا يكون لأهله من الأمر شىء . فهم فى نظر نفسه وفى نظر الناس قطعة منه ، إن تحيفوا وتنعموا بسلطانه ، فذلك هو « استغلال النفوذ » الذى بالغ فى التحرز منه شخصيا ، وهو كذلك يبالغ فى حياطة أهله وتحذيرهم منه وتحريمه عليهم ، وتوعدهم بالنكال الشديد إن حاولوا من ذلك شيئا جليلا أو يسيرا . . .

يقول الطبرى :

وكان عمر إذا أراد ان يأمر المسلمين بشىء أو ينهاهم عن شىء مما فيه

صلاحهم بدأ بأهله ، وتقدم إليهم بالوعظ لهم ، والوعيد على خلافهم أمره . . . وحدثنا أبو بكر بن عباس بسنده عن سالم قال :

كان عمر إذا صعد المنبر فنهر الناس عن شيء جمع أهله فقال :

- إنى نهيت الناس عن كذا وكذا . وإن الناس ينظرون إليكم نظر الطير إلى اللحم . وأقسم بالله لا أجد أحدا منكم فعله الا أضعفت عليه العقوبة .

هذا شأنه مع أهله الذين يحبهم بالطبع ، وكذلك كان حاله مع من يودهم من عماله وقواده . حبه لهم منفصل عن محاسبتهم عما يفعلون ، وتقديره لما يحققون للأمة . . .

فإذا تركنا الحب إلى البغض ، رأينا ها هنا المثل الرائع .

كان أبو مريم السلولى قبل إسلامه قد قتل أخاه زيدا ، وكان عمر شديد التعلق بزيد فلما لقى أبا مريم وهو خليفة قال له :

- والله لا أحبك حتى تحب الأرض الدم المسفوح !

فقال له أبو مريم :

- أتمنعنى لذلك حقا لى ؟

فما تردد عمر ، بل قال على الفور :

- لا !

فقال أبو مريم :

- لا ضير إذن ! لا يأسى على الحب غير النساء !

وإنه فوق هذا لشديد التنبه إلى فتنة السلطان ، وها هو قد وجد نفسه « وليس فوقه من دون الله أحد » وان فى طبعه لاعتدادا وحمية ، فإذا به على ديدنه فى ترويض « ذاته الدنيا » وقمعها ، ينهال عليها بكل جبروته

تصغيرا ، كما يردها إلى ما يريده لها من الانسحاق الذى يترك السلطان كله لذاته العليا . فأبى على نفسه كل مظهر من مظاهر الوجاهة ومناعم الرفاهة التى لا حرج فيها على أهل اليسار من الرعية . ومن ذلك أنه أبى ان يركب الدواب المطهمة ، حتى ولو كان فى موقف المهابة المطلوبة ، كدخوله الشام ليعقد صلح إيلياء ، (القدس) مبالغة منه فى دفع الزهو عن نفسه بذلك الفتح المبين . فانما هو فتح قام به عباد الله بمدد من الله ولوجه الله !

ومر ذات يوم بمكان من أرباض مكة فقال لمن صحبوه من أولاده وعماله وأصحابه :

- لقد رأيتنى فى هذه الشعاب ارعى إبل الخطاب ، وكان غليظا يتعبنى ، ثم أصبحت وليس فوقى أحد . . !

وساءت هذه الكلمة ابنا له فقال له حين خلا به :

- ما حملك على هذا القول يا أمير المؤمنين ؟

فقال له :

- إن أباك اعجبته نفسه فأحب أن يضعها !

هذا رجل « ذاته العليا » ساهرة تتربص لذاته الدنيا الهفوات والخواطر ، لتنهال على أم رأسها بهراوة التأديب !

وهو بهذا التأديب يستطيع أن يأتمن ذاته العليا على حمل المسئولية العليا فى الأمة والتصرف فى كل قضايا دولة الإيمان بالحق والصدق .

* * *

ولا يقف الأمر عند هذا الحد، فهو اليوم المسئول عن الإيمان يتوخاه بأقصى قدراته . وقد جد من أمور الناس ما لم يكن واردا على عهد نزول الوحى وحكم النبى وسنته . فلا محيص إذن من الاجتهاد ، وتكييف الأمور

على مقتضى الأحوال . لا بالهوى . ولا بالمزاج الخاص . بل باستلهام الشرع وإعمال عقله المستقل .

ألم يكن ـ وهو المثالى ، وكل مثالى فهو متطرف ـ بارز الرأى مستقله على عهد النبى كما أشرنا من قبل ؟ ولكم أصاب المحز برأيه ، ولا غرو ! فإيمانه يملك عليه عقله ، ولا يرى له إلا أليق وضع وأكرمه .

وهل يوم أسرى بدر بسر ؟

وهل يوم مات ابن أبى بن سلول بسر ؟

وهل يوم الحديبية بسر ؟

إنه الرأى المستقل المتطرف الصادر عن الغيرة على العقيدة والإيمان و « الحق » ، ألا يوضع إلا حيث يجدر به من المصلحة القصوى .

ليكونن إذن فى استقلال رأيه ، وقد اتسعت الدولة ، الدعامة الثالثة للعقيدة ودولة الايمان .

لن يتردد فى تحريم زواج المتعة الذى كان النبى قد أحله ! ولن يتردد فى العتق التلقائى لكل أمة تلد لسيدها ، غير متوقف ذلك على إذن مالكها ! ولن يتردد فى منع توزيع الأراضى فى البلاد المفتوحة على الجند ، وكانت السنة قد جرت على توزيعها . وألغى ما كان قد فرضه النبى للمؤلفة قلوبهم . وأوقف قطع يد السارق فى عام المجاعة .

إنه الحكم بروح الشرع والعقيدة . لا بالحروف . إنه الحكم بالعقل المبدع المستلهم للعقيدة ، وليس حكم الاتباع الحرفى .

إنه الحكم لله ، فى غير هوادة . . .

لم يعرف مع نفسه هوادة ، ولا مع أهله ، وأمسك لنفسه ولأهله هراوة غليظة . . . .

فكان طبيعيا أن يحمل للناس الدرة « العصا » ويضربهم بها ! فلا تأخذه بأحد فى « الحق » هوادة !

أمير المؤمنين

ها هو عمر وقد أخذ نفسه بالشدة والعنف ، على الصورة التى ذكرناها ، ليكون « الأداة » للحق ودولة الايمان ، يتصدى لما ندب له من المسئولية العليا عن المؤمنين ، أميرا للمؤمنين .

وإنه الرجل الذى يتحرج أن يكون فى موضع التبعة العليا إلا إذا آمن أنه كفؤ لها ، بما راض نفسه وسخرها للحق الإلهى كما لبسه وتلبس به واستوعبه ، حتى صار لا يتنفس ولا يتحرك إلا بدافع منه .

وهو فى هذا المقام يمثل ما سميته فى بعض كتبى مبدأ « المسئولية عن » بكامل معانيها ، ومبدأ المسئولية « أمام » بمعنى واحد من معانيها فحسب .

ونوجز القول فى هذين المبدأين ، فنقول إن المسئولية « عن » لا تكون الا عن المبدأ ، أو عن الايمان العميق . عندئذ يكون من يدين بمبدأ ما فى أعماق سريرته شاعرا أن هذا المبدأ هو « معنى » حياته . وأن حياته بدون تحقيق هذا المبدأ فى سلوكه وأفعاله كافة تكون حياة خالية من المعنى ، هى وحياة السائمة والهوام سواء بسواء .

ذلك أن الفارق الحاسم بين الحياة الانسانية وبين الحياة الحيوانية المحض ، أن حياة الإنسان تمثل معنى معينا فى أفعالها وغاياتها . أما الحيوان فحياته لا تنشد تحقيق معنى ما ، بل هى مجرد أداة لدافع حيوى من الغرائز والميول والاحتياجات الفطرية المادية .

وبدافع المسئولية عن المبدأ الذى تقمصه المرء من الناس يكون جهاده لحمايته من العوامل المضادة له ، ومن أهمها عوامل الرغبات الحيوانية التى لا تعرف مبدأ ، وإنما هى « حاجة حيوية وإشباعها » ، وهذا كل ما فى الأمر . فلابد لصاحب المبدأ من الغيرة عليه غيرة تفوق غيرته على حياته نفسها ، لأنه مستعد ـ إذا لزم الأمر ـ أن يضحى بحياته فى سبيل صيانة مبدئه الذى يؤمن به ، والدفاع عنه ، واعلاء كلمته . . . فالمبدأ عنده أغلى من الحياة ، لأنه هو الذى يجعل لحياته معنى أو قيمة ، وبدونه لا قيمة لها . .

وليس كل البشر على هذا المستوى الانسانى الرفيع ، فما أكثر من يعيشون حياة بلا معنى ، وانما هى « استهلاك » حيوى لطاقات الحياة فى « اشباع حاجات حيوية » ، شأنهم فى هذا شأن الحيوانات العجماء . وكل ما هناك ان هؤلاء البشر حيوانات « ذكية » رزقت المواهب الذهنية التى تفوق مالدى الحيوان ، ولكنها لا تستخدمها إلا فى ما يماثل اغراض الحيوان .

وفى مذهبى الفلسفى الذى سميته الفلسفة التعبيرية ، بسطت فى كتابين منهما هما « الله والانسان والقيمة » و« نحو مفهوم انسانى للانسان » ان المميز الحقيقى للانسان حقا عن الحيوان هو فى وجود هذه المسئولية عن المبدأ لدى الانسان . فالمبدأ ، والايمان به ، والمسئولية عنه ، هى التى تجعل فعلا لحياته « قيمة » أو « معنى كلى » يتمثل فى أفعاله ، أو على الأقل فى اجتهاده لتوجيه أفعاله وسلوكه إلى تحقيق هذه القيمة ، أى هذا « المعنى الكلى » . قلت أيضا أن « القيمة » هى المعراج الحقيقى من الانسان إلى الله ، وليس الذكاء أو العقل الفطرى فى مجموعه ، بحيث يكون الله قيمة القيم التى يتجه إليها العروج القيمى ، أو النشاط القيمى للانسان . فى شوط بلا انتهاء .

أما الآخرون . أما البشر الذين لا يمثل « المبدأ » أو « المعنى الكلى » لباب حياتهم فعلا ، بحيث يكون قوتهم الدافعة ، وعنه يشعرون بكامل المسئولية لحمايته وتحقيقه ، فهؤلاء لا يعرفون المسئولية الباطنة « عن » ، لأنها لا تكون إلا « عن » مبدأ . ولا مبدأ لديهم . وكل ما يعرفونه من المسئولية هو المسئولية « أمام » . أى أمام سلطة خارجية ، عرفا كانت أو قانونا . فهم « يخافون ولا يستحون » . إذا أمنوا الرقيب الخارجى فعلوا ما يشتهون . وإن لم يأمنوا امتنعوا . بل إن منهم من لا يبالون ويحتالون أو يتحدون السلطة والمسئولية أمامها .

والناس قبل الدين ، أو بدونه ، لا يعرفون غالبا المسئولية « أمام » . فهم عبد العصا كالحيوانات . والدين يرمى إلى تحويل المؤمنين إلى مسئولية « عن » إيمانهم وعقيدتهم . . .

وهم فى الوقت نفسه يشعرون بنوع واحد من المسئولية « أمام » ، هى المسئولية أمام الضمير ، وأمام الديان . أما ما خالف ذلك من السلطات الخارجية فلا حساب له ، بل قد يجد المؤمن نفسه يتحداه إذا ما أراده على مخالفة مبدئه الذى يدين به ، فهو من ثمة مسئول عنه .

* * *

ولقد كانت المسئولية « عن » على أتمها عند عمر . وبمقتضاها كانت مسئوليته أمام ضميره الدينى وأمام الديان على أتمها أيضا . فالمسئولية « أمام » إنما هى ها هنا فرع عن « المسئولية عن » .

وعمر قد انهال على ذاته الدنيا بالهراوة الغليظة حتى راضها على الانقياد التام لذاته العليا ، التى لبابها المسئولية « عن » عقيدته التى تقمصها وإن محت شخصيته ومشاعره وعقليته وحميته وقواه كلها فيها . فكان ذلك « المثالى » الذى لا يعرف فى مسئوليته « عن » إيمانه حدا يقف عنده . فلا غرابة أن يجد فى نفسه الكفاءة كلها لإمارة المؤمنين ، اختاره لها أبو بكر ،

ويايعه عليها المؤمنون . ولو أنه وثق بهذا لما قبل الامانة ، ولذا نجده شديد الثقة والاعتداد بقدراته فيمن بقى من جيله ، فيقول : - برواية الطبرى - فى خطبة توليته :

- يا أيها الناس ! انى قد وليت عليكم ، ولولا رجاء ان أكون خيركم لكم ، وأقواكم عليكم ، وأشدكم استقلالا بما ينوب من مهم أمركم ، ما توليت ذلك منكم !

كلام قاطع بامتحانه نفسه ، وشعوره بالمسئولية « عن » الامانة ، فلو انه وجد فى جيله من هو أقدر عليها منه لما تولاها ! أما وهو قد استكمل ترويض نفسه الدنيا واستتم قواه وأنس فيها الكفاءة ، فمسئوليته عن عقيدته تدعوه لقبول التبعة ، كما يقبلها البطل الذى رأى الأمر وليس فى الناس من هو أقدر عليه منه !

وفى هذا تبرز طبيعة البطل المقدام ! وثقته بقوته وقدراته .

ثم ماذا أيضا يا عمر ؟

ثم يقول فى خطبة تالية - برواية الطبرى أيضا -:

- إن الله عز وجل قد ولانى أمركم ، وقد علمت أنفع ما بحضرتكم لكم ، وإنى أسأل الله أن يعيننى عليه ، وأن يحرسنى عنده، كما حرسنى عند غيره ، وأن يلهمنى العدل فى قسمتكم كالذى أمر به .

فهو حريص هنا على أن يذكر « معرفته بما هو أنفع لهم » ، فاضطلاعه بالأمر ليس اضطلاع الكفيف ، أو الجاهل الذى يروم أن يتحسس سبيله أو يسأل عنه الناس . بل هو اضطلاع الدارس العارف الخبير .

ثم ماذا يا عمر؟

يقول عمر على الأثر :

- ولن يغير الذى وليت من خلافتكم من خلقى شيئا إن شاء الله .

إنما العظمة لله عز وجل ! وليس للعباد منها شيء ! فلا يقول أحد منكم : إن عمر تغير منذ ولى .

إنها البساطة فى عمر . « قمت وأنا عمر وجلست وأنا عمر » ، فالعظمة لا تتفق ، بل لا ترد على خاطر رجل يؤمن أن الولاية أمانة ، وأن الأمانة تبعة ، وأنها تكليف لا تشريف !

لكم يجهل أكثرنا يا أمير المؤمنين هذا المعنى ، لأنهم ليسوا أهل أمانة للمبدأ يصدرون عن تقديسه والمسئولية « عنه » .

وكيف ستصنع يا أمير المؤمنين مع المؤمنين ؟

يقول أمير المؤمنين ، فى خطبته تلك ـ وخطبه كلها ما أقصرها وأقيمها وأحكمها !

ـ اعقل الحق من نفسى وأتقدم ! وأبين لكم أمرى !

« أعقل الحق من نفسى وأتقدم . . » .

انظر إلى قوله « من نفسى » ! . . . انه استلهام الحق من منبع الايمان فى النفس ، وتناوله بالعقل اليقظ الابداعى الملتزم فى آن واحد . الملتزم بمعنى المسئولية « عن » هذا الايمان . فهو يعمل عقله ويجتهد فى رأيه مستلهما عقيدته للحق . ثم متى عقله تقدم إلى المؤمنين ، وأمرهم بما يراه موافقا للحق ، مبينا لهم أمره فى غير إبهام . . .

وهكذا يكون البطل حاكما . . .

بل هكذا يكون البطل الحاكم المثل للحاكمين أى مثل .

ولا يكفيه هذا حتى يحتاط ، فجل من لا يخطىء . يقول عمر :

ـ فأيما رجل كانت له حاجة أو ظلم مظلمة ، أو عتب علينا فى خلق ، فليؤذنىّ ، فانما أنا رجل منكم ! . . . وانه ليس بينى وبين أحد من الناس

هوادة . . . فعليكم تقوى الله فى سركم وعلانيتكم ، . . . وأنا مسئول عن أمانتى وما أنا فيه !

« ليس بينى وبين أحد من الناس هوادة » . . .

أى أنـه لا يعرف فى الحق صديقا ولا عدوا ، ولا يعرف فى الله لومة لائم ! فلا عجب أن ينبرى لرعاية رعيته من المؤمنين ، وفى يده الدرة ـ وانه كما قال الطبرى أول من حملها لا تفارقه ، وضرب الناس بها . . فقد انبرى لذاته الدنيا لا بالدرة فحسب ، بل بالهراوة الغليظة ! .

انبرى لهم بروح « شيخ القبيلة » أو « أبى العائلة » بالمعنى الرومانى الذى كانوا يسمونه « باتر فاملياس » . يرعاهم من كل وجه ، ويحميهم ، ويرد غربهم ، ويثيبهم ويعاقبهم ، ففيه تجسد القانون يعمله بلا هوادة .

وفى هذه الخصلة تتمثل شريعة المساواة أمام القانون ، بغير تحامل على مبغض ولا تحيز لحبيب . فلم يعف من سنة المساواة هذه كأسنان المشط أحدا مهما علا مقامه وعظمت أياديه على الأمة والدولة .

وما أقل من لهم أياد على الدولة الاسلامية مثل سعد بن أبى وقاص ، الذى كان عمر نفسه حين يكتب اليه يقول له وهو على رأس جيش المسلمين فى الفتوح :

ـ يا سعد يابن أم سعد ! لا يعجبك قولهم : خال رسول الله .

خال رسول الله هذا ، والغازى صاحب الفتح المبين ، لم يعفه عمر من درته ، لأنه شام منه أنه يريد أن يخرق سنة أن الناس سواسية كأسنان المشط !

يقول الطبرى برواية مرفوعة إلى راشد بن سعد :

« ان عمـر بن الخطاب رضى الله تعـالى عنـه أتى بمال ، فجعـل

يقسمه بين النـاس ، فازدحموا عليه ، وأقبل سعد بن أبى وقاص يزاحم الناس ، حتى خلص إلى عمر ، فعلاه عمر بالدرة ! وقال :

- إنك أقبلت لا تهاب سلطان الله فى الأرض ، فأحببت أن أعلمك أن سلطان الله لن يهابك !

وسلطان الله فى الأرض هنـا هو حارس « المسـاواة بين النـاس » فى الحقوق ، وفيما نسميه نحن « تكافؤ الفرصة » . . .

ولكنه لا يعمل درته فى أصغر الناس مقاما بغير موجب ، إلا وحاسب نفسه وراجعها ، وكفر عن هذه الفعلة .

يقول الطبرى فى رواية مرفوعة إلى إياس بن سلمة عن أبيه قال :

« مر عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى السوق ومعه الدرة ، فخفقنى بها خفقة ، لم تصب إلا طرف ثوبى ، وقال :

- أمط عن الطريق ! (أى لا تزحم الطريق)

فلما كان فى العام المقبل لقينى فقال :

- يا سلمة ! أتريد الحج ؟

فقلت :

- نعم !

فأخـذ بيدى فانـطلق إلى منزله فأعطانى (من ماله الخاص) ستمائة درهم وقال :

- استعن بها على حجك ! واعلم أنها بالخفقة التى خفقتك !

قلت :

- يا أمير المؤمنين ما ذكرتها .

فقال :

ـ وأنا ما نسيتها !

ها هنا البطل وقد صار مثلا ! فهو يحمل الدرة لكل خارج على السوية ، أيا كان مقامه ، ولكنه لا يفتن بقدرته على الناس ، ولا يستخدمها « فى غير حقها » ، وإن هفا هفوة ندم عليها ، وحاسب نفسه وكفر عنها .

والدرة عنوان السلطة .

وأسلوبه فى السلطة هو المثل لكل صاحب سلطة فى الاقدام لا يهاب الكبير ، وفى رعاية حق أصغر صغير ، فلا « إساءة عنده لاستخدام السلطة » . والذى يرده ليس « مجلس الدولة » أو « القضاء الادارى أو غير الادارى » بل ماهو أدق من ذلك محاسبة له ، لأن مسئوليته « عن » الحق ، وليست مسئوليته أمام قضاء . . .

وكذلك الحال فى أمور المال ، فله من مسئوليته « عن » الأمانة الكبرى ألف ديوان محاسبة .

* * *

واحساسه بالحرص الشديد على المساواة بين الناس ، وعلى إشعارهم هذه المساواة المطلقة ، يدل على حكمته ووعيه العميق بموطن الاختلاف بين الحال فى الجاهلية ، وبين ما أحدثه الاسلام من التغيير الحاسم فى احساس الناس بالكرامة أمام الشرع وأمام السلطة .

ولمحة واحدة لما كانت عليه الجاهلية كافية جدا لبيان هذا الفرق ، حين كان الظلم من « شيم النفوس » فإن تجد ذاعفة فلعلة (أى لعجز فيه) لا يظلم ! . . فالقوة كانت هى الحق كل الحق ، والحق لا سلطان له

ولا حول له ولا طول . انـظر إلى تصوير عمرو بن كلثوم فى معلقته المشهورة ، لعنجهية القوة :

فنحن المانحون إذا أطعنا ونحن الحارمون إذا عصينا !
ونحن التاركون إذا سخطنا ونحن الآخذون إذا رضينا
ونشرب إن وردنا الماء صفوا ويشرب غيرنا كدرا وطينا . . !!
لنا الدنيا وما أمسى عليها ونبطش حين نبطش قادرينا !
بغاة ظالمين وماظُلمنا ولكنا سنبدأ ظالمينا !

وحسبك من فرق بين هذه العنجهية التى تزهو بالقدرة على الظلم وممارسته ، وعلى البطش والتمادى فيه ، وبين الكرامة الانسانية لكل انسان فيما شرعه الدين ، ان المتدين يشمئز من هذه العنجهية ، ويبرأ إلى الله منها ان كان صاحب سلطان . . كقول عمر للناس :

- وإنما أنا رجل منكم . والعزة لله وحده !

لذا كان عمر شديد الحساسية لكل ما ينتهك هذه المساواة ، لأنه انتهاك يرد الأمر إلى تفاوت الناس فى الجاهلية ، ليبطش القوى بالضعيف ، وهو يقول فى عنجهية :

- خذها وأنا ابن الأكرمين !

فلو تسامح عمر فى مسألة من هذا القبيل لانهدم فى نظر الناس جل ما كسبوه بالاسلام من الكرامة والحق . . ولهذا المعنى خفق سعد بن أبى وقاص حين لكز الناس وزاحمهم ليتقدمهم إليه . وأقرب شىء إلى روح عمر فى تصورى أن يصطف الناس « طابورا » لا يسبق أحدا فيه أحد إلا بأسبقية حضوره ، فالكل متساوون ، وفرصتهم متكافئة .

بل إن ما هو أكثر مما فعل سعد بن أبى وقاص ، وهو الفاتح خال رسول الله ، قمين أن يشعل غضبه . وهل ينسى الناس ما هو مشهور من

قضية ابن عمرو بن العاص فاتح فلسطين وفاتح مصر مع ابن المصرى حين تسابق فرساهما ؟ لقد سبق فرس ابن المصرى فرس ابن عمرو ، فأخذت العزة بالاثم ابن عمرو ، وضرب ابن المصرى أمام النظارة لوقاحة فرسه ، وتجاسره على سبق فرس ابن حاكم مصر . ضربه بسوطه وقال له :

- خذها وأنا ابن الأكرمين !

وذهب المصرى بابنه إلى أمير المؤمنين شاكيا ، واستدعى عمر عمرو بن العاص وولده . وأعطى الدرة ابن المصرى وقال له :

- اضرب بها ابن الأكرمين !

وضربه الشاب حتى اشتفى ، فقال له عمر :

- أدرها الآن على صلعة عمرو ، فإنما استطال عليك بسلطان أبيه !

ولولا أن الرجل قال :

- حسبى يا أمير المؤمنين ، فقد ضربت من ضربنى .

لكان عمرو ذاق من الدرة ما يكره ، على يد أحد رعيته !

وأكثر من هذا ، قصته مع جبلة بن الأيهم ، ومن جبلة بن الأيهم ؟

إنه ملك الغساسنة ، وأحد كبار قواد هرقل فى حربه مع المسلمين فى بلاد الشام . وممن كان يقصدهم الشعراء العرب فى الجاهلية فيمدحونهم وينالون جوائزهم السنية . فهو الذى قال فيه حسان بن ثابت ، شاعر النبى من بعد :

لله در عصابة نادمتهم	يوما بجلق فى الزمان الأول
بيض الوجوه كريمة أحسابهم	شم الانوف من الطراز الأمثل !

وكان مثلا رائعا فى الجمال والترف والأبهة على الطراز البيزنطى ، فما رأى هزيمة هرقل وقولته المشهورة :

- وداعا سوريا !

حتى أقبل كثيرون من أهل الشام على الاسلام ، فقرر أن يسلم مع ذويه جميعا ، عسى أن تبقى له عزة ملكه على إقليمه . وأرسل أبو عبيدة إلى أمير المؤمنين هذه البشارة . فسر لها كثيرا . ثم سار جبلة فى خمسمائة من ذويه وجهاء الغساسنة وفرسانهم إلى المدينة فى ركب ملكى غاية فى الأبهة والفخامة . فخرجت نساء المدينة عن بكرة أبيهن ليرين تلك الزينة الاسطورية التى سارت بها الركبان . . . فإذا رجال كالبدور فى السلاح الرومانى المزخرف المذهب اللامع الذى يخطف الأبصار ، فى ثياب الحرير والدمقس المتعددة الألوان ، وقد عقدوا أذناب الخيول على الطريقة البيزنطية ، وزينوا صدورها بقلائد الذهب والفضة (أى ما نسميه فى اللغة الدارجة « الرشمة ») . وازدان مفرق جبلة بتاجه النفيس . ودخل الركب المدينة التى تعيش عيشة بسيطة بدائية على تلك الحالة ، حتى انتهى جبلة إلى عمر فرحب به وأدنى مجلسه منه .

وبعد قليل توجه عمر إلى مكة وصحبه جبلة . وفيما هو يطوف بالكعبة وطىء رجل من بنى فزارة إزار جبلة ، فأخذت العزة بالجاه والملك جبلة ، فما كان منه الا ان رفع يده وضربه فأدمى أنفه . ولجأ الفزارى إلى عمر ، فاستدعى عمر جبلة ، فلم ينكر . ولماذا ينكر ؟ ما فعل - فى حسبانه - الا ما هو طبيعى ، ولعل فى ظنه أن عمر سيزيد الرجل تأديبا . فلم يزل جبلة جاهلى الطبع . .

ولكن هاله أن أمير المؤمنين قال له :

- قد أقررت ! فإما أن ترضى الرجل وإما أن أقيده منك ! (أى اجعله يقتص منك بمثل مااعتديت به عليه) .

وصاح جبلة مستنكرا :

- وكيف ذلك ، وهو سوقة وأنا ملك ؟

قال عمر :

- إن الاسلام جمعك واياه ، فلست تفضله بشيء إلا بالتقى والعافية (أى الخلو من الذنوب) .

قال جبلة :

- لقد ظننت يا أمير المؤمنين أن الاسلام ، وقد انتصر على الروم ، جعلنى بالدخول فيه أعز منى فى الجاهلية .

قال عمر :

- دع عنك هذا ! فانك إن لم ترض الرجل أقدته منك !

فلما رأى جبلة الصدق من عمر قال :

- أنا ناظر فى هذا ليلتى هذه .

وأذن عمر لجبلة فى الانصراف ..

وتحت جنح الليل ارتحل جبلة بذويه الخمسمائة إلى الشام ، ومنها إلى القسطنطينية ، لائذا بالروم .

وقد يرى قصار النظر أن عمر اشتط فى تطبيق المساواة أمام القانون . ولكن هذه المساواة هى الفارق الحاسم بين روح الجاهلية وروح الدين . ولم يفت ألمعية عمر هذا المعنى ، فكيف يتهاون فيه ، وهو الذى « ليس بينه وبين أحد فى الحق هوادة » ؟

بهذا يكون عمر البطل ، هو عمر المثل ، لأنه مثالى . والمثالى لا يقفه عن طلب « المثل الأعلى » شىء !

* * *

ويسلمنا هذا إلى « صورة الحكم عنده » وعند « رعيته » ، لنرى هل كان فيهما اختلاف ؟

صورة الحكم عنـده أن يكـون الحـاكم فى خدمـة النـاس قاصيهم ودانيهم ، وأن يرعاهم ويسعى هو إليهم فيما يصلح لهم ويكفل معيشتهم ، ولا يكلفهم أن يسعـوا إليه . فالحـاكم الأمين هو الذى يقوم بهذا ويقدر عليه أكثر من سواه . ولو قدر عليه سواه أكثر منه لكان أولى منه بهذا الأمر ـ الذى هو أمانة وتكليف لا تشريف ولا « منظرة » بلغة العصر الدارجة على الألسنة .

لذا قال فى خطبة ولايته :

ـ لولا علمى أنى أقدر على أمركم من غيرى ما وليت أمركم .

فماذا كانت صورة الحكم عند رعيته من المؤمنين ؟

نرجـع إلى الـطبرى فى حادثـة يرويها ، ينطق بما نريد ، فى رواية له مرفوعة باسناده إلى زيد بن أسلم عن أبيه ، انه قال :

ـ خرجت مع عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى حرة واقم ، حتى إذا كنا بصرار ، إذا نار تؤرث ، فقال :

ـ يا أسلم ! انى أرى هؤلاء ركبا قصر بهم الليل والبرد ، انطلق بنا .

« فخرجنا نهرول حتى دنونا منهم ، فإذا امرأة معها صبيان لها ، وقدر منصوبة على النار ، وصبيانها يتضاوون (أى يتضورون من الجوع) فقال :

ـ السلام عليكم يا أصحاب الضوء !

ـ وعليك السلام !

قال عمر :

ـ أأدنو ؟

قالت :

ـ ادن بخير أو دع !

فدنا فقال :

- ما بالكم !

قالت :

- قصر بنا الليل والبرد .

قال :

- فما بال هؤلاء الصبية يتضاوون !

قالت :

- الجوع !

قال :

- وأى شىء فى هذه القدر !

قالت :

- ماء أسكتهم به حتى يناموا . الله بيننا وبين عمر !

قال :

- رحمك الله ! ما أدرى عمر بكم ؟

قالت :

- يتولى أمرنا ويغفل عنا !

ها هو رأى الرعية على أيامه فى الحاكم، وهذا تصورهم للحاكم كيف ينبغى أن يكون : مهمته البحث عن ذوى الحاجة ليسعى إليهم بما يسد حاجتهم . والا فهو مقصر ، يستعدون عليه الله !

ويستطرد الطبرى فيقول :

فأقبل عمر على فقال :

ـ انطلق بنا !

فخرجنا نهرول ! (انظر إلى قوله « نهرول ») حتى أتينا دار الدقيق فأخرج عدلا فيه كبة شحم ، فقال :

ـ احمله علىّ !

فقلت :

ـ أنا أحمله عنك !

قال :

ـ احمله على .

مرتين ، وثلاثا ، وأنا أريد أن أحمله عنه ، فقال متأففا :

ـ أأنت تحمل عنى وزرى يوم القيامة ؟ لا أم لك !

ها أنت ترى عمر نفسه يرى واجبات الحاكم ومسئوليات الحكم ، عين رؤية رعيته لها ، ممثلين فى تلك البدوية . ويرى أن الله سيحاسبه لتقصيره فى البحث عن أمثالها .

ويستطرد الطبرى :

فحملته عليه ، فانطلق وانطلقت معه نهرول ، حتى انتهينا إليها ، فألقى ذلك عندها ، وأخرج من الدقيق شيئا فجعل يقول لها :

ـ ذرى على ، وأنا أحرك لك .

وجعل ينفخ تحت القدر ـ وكان ذا لحية عظيمة ـ فجعلت انظر إلى الدخان من خلل لحيته حتى أنضج وأدم القدر ثم أنزلها وقال :

ـ ابغينى شيئا .

فأتته بصفحة فأفرغها فيها ، ثم جعل يقول :

ـ أطعميهم ! وأنا أسطح لك (أى أبردها لك بالنفخ)

« فلم يزل حتى شبعوا ، ثم خلى عندها فضل ذلك ، وقام وقمت معه ، فجعلت تقول :

ـ جزاك الله خيرا ! أنت أولى بهذا الأمر من أمير المؤمنين ! »

أجل ! هذه صورة ولى الأمر عند رعيته ، وهى بعينها صورتها عنده . وما كان يقدر عليها أحد سواه .

وهى صورة لا يستطيع النهوض بها إلا بطل ، وهو فى قيامه بها مضرب المثل . . .

نِعْمَ ولى الأمر عمر !

ولكن عمر ليس البطل فى اقتداره على الأمانة لأنها أمانة فحسب ، بل فيه عنصر آخر اقترن بحرصه على الأمانة وأداء الواجب ، ليس مرده إلى عمر البطل ، بل إلى عمر الرجل . لأنها سجية ليست من عناصر البطولة ومقوماتها ، بل مرجعها إلى مزاجه وطبعه بماهو فرد معين متميز عن سائر الناس .

إنه الحدب والبر والرحمة بالرعية ، كأنه أب لهم رحيم ، أو أم لهم رءوم . . . ! فليس حتما ان يكون البطل القادر على ما لايستطيعه غيره رحيما أيضا وعطوفا ومحبا .

أما عمر ، فعلى شدته فى الحق ، وخشونته الطبيعية فى مزاجه ، فيبدو كثمرة الجوز ، وراء غلافها الصلد حلاوة وعذوبة !

وذاك ما جعلنى أقول فى رأس هذا الفصل « نعم ولى الأمر عمر ! » فولى الأمر قد يكون عادلا وشديدا فى الحق والعدل ، ولا يكون محبا عطوفا . أما عمر فهو هذا وذاك معا .

ونرجع إلى القصة التى رواها الطبرى عن المرأة التى كان أطفالها يتضاوون من الجوع ، فنطالع بقيتها بالسند المرفوع إلى أسلم :

« ثم تنحى عمر ناحية من المرأة وبنيها ، ثم استقبلها وربض مربض السبع ! فجعلت أقول له :

- إن لك شأنا غير هذا !

وهو لا يكلمنى ، حتى رأيت الصبية يصطرعون ويضحكون ثم ناموا وهدءوا ، فقام وهو يحمد الله ، ثم أقبل على فقال :

- يا أسلم ! إن الجوع أسهرهم وأبكاهم ، فأحببت ألا أنصرف حتى أرى ما رأيت منهم ! »

لمحة ناطقة بذاتها بطوية عمر العطوف الرحيم بالضعفاء والصغار من الرعية ، يتوجع قلبه لتعاستهم ، ولا يستريح قلبه حتى يراهم من شدة المرح والامتلاء بدفعات الحياة فى أبدانهم الصغيرة « يصطرعون » . . . فإن صغار البشر كصغار الجداء والماعز ، إذا ما رعت وامتلأت ، كان لها فى فرحها بالحياة مرح وصخب وتصارع بالقرون هو بالمزاح أشبه !

أما جفوته وخشونته ، فهى مظهر من مظاهر البدوى الذى يستحى أن يظهر عواطفه حتى لا تظن به الرخاوة والضعف .

حتى ما اشتهر من خشية الناس له كان مظهرا خادعا ، فهو باعترافه - لشدة إحساسه بالتبعة والمسئولية عن الناس - كان يخشاهم أكثر مما يخشونه !

يقول أبو جعفر - برواية الطبرى :

« كان رضى الله عنه شديدا على أهل الريب ، وفى حق الله صليبا حتى يستخرجه . ولينا سهلا فيما يلزمه حتى يؤديه ، وبالضعيف رحيما رؤوفا »

ويروى الطبرى ، بسند مرفوع إلى أسلم أنه قال :

« إن نفرا من المسلمين كلموا عبد الرحمن بن عوف فقالوا :

- كلم عمر بن الخطاب فانه قد أخشانا (أخافنا لشدة هيبته) حتى والله ما نستطيع أن نديم إليه أبصارنا .

فذكر ذلك عبد الرحمن بن عوف لعمر ، فقال عمر :

ـ أو قالوا ذلك ؟ فوالله لقد لنت لهم حتى تخوفت الله فى ذلك . ولقد اشتددت عليهم حتى خشيت الله فى ذلك . وايم الله لأنا أشد منهم فرقا « فزعا » منهم منى !

. ولا نتصور عمر المهيب الجبار يقول إنه يفزع من الناس عبثا ولا مبالغة ، فما عرف المبالغة ولا العبث ولا المجاملة الكاذبة . بل إنى أصدقه فيما قال بحروفه ، لأن الناس هم مسئوليته أمام ربه ، وما أشد فزعه من التفريط فى حق أحد منهم ، أو التقصير فيما يجب لهم من الرعاية . . .

وبمثل هذا الاحساس العميق بالتبعة والمسئولية عن الرعية ، وبمثل هذه اليقظة وبمثل هذا الحدب والعطف والرحمة ، يكون عمر نعم ولى الأمر حقا . لأنه الأب الحازم اليقظ العطوف . رب العائلة هو بكل معنى الكلمة ومبناها . . حتى لقد كلف نفسه بكل المهام كبيرها وصغيرها ، مما لا نتصوره من حاكم تحت إمرته ما كان إمبراطوريتين !

وإنه على هذا كله للقوى الأمين . الذى لا يعرف الكلل .

يروى الطبرى فى ذلك بسند مرفوع إلى أبى بكر العبسى ، قال :

« دخلت حظيرة الصدقة مع عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب وعثمان بن عفان ، فجلس عثمان فى الظل يكتب ، وقام على رأسه على بن أبى طالب يمل عليه ما يقول عمر ، وعمر فى الشمس قائم فى يوم حار شديد الحر ، عليه بردان أسودان ، متزرا بواحد ، وقد لف على رأسه آخر ، يعد إبل الصدقة ، ويكتب ألوانها وأسنانها ، فقال على لعثمان :

ـ هذا نعت بنت شعيب فى كتاب الله « يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين » .

ثم أشار على بيده إلى عمر فقال :

ـ هذا القوى الأمين !

أما كان فى وسع عمر أن يوكل بهذا العمل أحدا ، أو يمارسه بنفسه وفى غير هذا الموقف المجهد بالذات ؟

كلا ! يمنعه من هذا أن « قلبه يأكله » غيرة على الأمانة التى فى عنقه لله ، وللناس الذين يفزع من التقصير فى حقهم ، حتى كان يطلى بيده جمال الصدقة الجربى بالقطران !

وهو إلى هذا لا يغلق بابه دون أدنى الرعية ، وإذا صلى جلس يستقبل مظالم الناس وحاجاتهم ويقضى بين الناس حيثما أدركوه . إلى أن تكاثرت القضايا فعين القضاة . . ولكن ماذا يصنع فى ليله ، بعد هذا العناء الشديد فى النهار ، الذى ينهض فيه بنفسه بكل الأعباء ؟ أينام ؟

كلا ! بل يقوم فى الليل بوظيفة الخفراء !

يقول الطبرى بسنده المرفوع إلى بكر بن عبدالله المزنى :

« جاء عمر بن الخطاب فى الليل إلى باب عبد الرحمن بن عوف فضربه ، . . . وقال له عبد الرحمن :

ـ ما جاء بك فى هذه الساعة يا أمير المؤمنين ؟

قال عمر :

ـ رفقة نزلت فى ناحية السوق خشيت عليهم سراق المدينة ، فانطلق فلنحرسهم !

« فانطلقا فأتيا السوق ، فقعدا على نشز من الأرض يتحدثان ! »

أيمكن أن نتصور أبا أبر بأبنائه ، يأكله قلبه قلقا عليهم وخوفا على صوالحهم وحياتهم أيقاظا ونياما ، من عمر برعيته ؟

وقد مر بك أنه كان يطوف الأسواق بدرته ، فمن وجده يسد الطريق بسلعة أو بشخصه خفقه بالدرة ، كى ينظم حركة المرور . فهو خفير

بالليل ، وشرطى مرور أو أمين شرطة فى النهار ! وهو فوق هذا الامام والقاضى وطبيب إبل الصدقة وموثق أوصافها !

* * *

وليس يكفيه هذا . هيهات . بل هو أيضا « جابى » أموال الشعب ، والساعى الذى يحمل إلى القاصين من المستحقين مستحقاتهم بنفسه ما استطاع ، لأنه إذ صار أمير المؤمنين ، يعلم انه أجيرهم وخادمهم الأول ، وهم سادته فى الحقيقة ، وليس هو سيدهم !

يقول الطبرى بسنده المرفوع إلى السائب بن يزيد :

« سمعت عمر بن الخطاب يقول :

- والله الذى لا إله إلا هو (ثلاثا) ما من أحد إلا له فى هذا المال حق، وما من أحد أحق به من أحد . . . وما أنا فيه إلا كأحدهم . . . والرجل وبلاؤه فى الاسلام ، والرجل وقدمه فى الاسلام ، والرجل وغناؤه فى الاسلام »

ولا يكفيه هذا فيردف أن لكل على قدر حاجته :

- والرجل وحاجته فى الاسلام .

ثم يشفع ذلك بقوله :

- والله لئن بقيت ليأتين الراعى بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو مكانه ! »

وهو كلام أشبه شىء بالضمان الاجتماعى الذى توزعه الدولة على « كل ذى حاجة » ، بحيث يصله وهو فى مكانه . وناهيك بشىء كهذا يقوله عمر فى زمانه ومكانه ، ونحن نحسب أننا سبقنا الأولين !

بل استمع إليه يخطب الناس فيقول :

- أيها النـاس !! إنى لوددت أن أنجو كفافا لا لى ولا علىّ . وإنى لأرجو إن عمرت فيكم يسيرا أو كثيرا أن أعمل بالحق فيكم إن شاء الله ، وألا يبقى أحد من المسلمين وإن كان فى بيته إلا أتاه حقه ونصيبه من مال الله ، ولا يسعى إليه بنفسه ، ولا ينصب (يتعب) إليه يوما ! . . »

نعم ولى الأمـر هذا حقـا ، لكأنه وكيل « دائرة » فيها ورثة كثيرون جدا ، تأبى أمانته واخلاصه الا ان يذهب إلى كل وريث بنصيبه ، لأنه وكيله وأجيره !

ولقد دون الدواوين ليضبط بالاحصاء والتسجيل أسماء المستحقين فئة فئة وقبيلة قبيلة ، منسوبين إلى آبائهم . ولكن رحمته أبت الا أن يشمل البر من مال من ليسوا لآباء . . فجعل للقطاء نصيبا معلوما من بيت المال . وهل يكون عطف وتكون رحمة أوسع من هذا وأشمل !

يأتيه الناس باللقيط ملقى على قارعة الطريق ، فيفرض له ما يفرضه لأى طفل رضيع ، وهو مائة درهم ، ويفرض لمن يعوله ويرعاه رزقا شهريا يسعـه ويرضيه حتى يحسن رعـاية اللقيط . ويتحمـل بيت المـال نفقات المرضع . حتى إذا كبر قليلا زاد رزقه شأن الأطفال الشرعيين .

* * *

ولا تتم صورة الرحمة عند عمر ، إلا إذا ألمعنا إلى ما كان منه فى عام القحط ، الذى اشتهر بعام الرمادة .

ويروى ابن سعد الشىء الكثير من شدته على نفسه وعلى أولاده فى تلك السنة ، لئلا يتميز عن الناس المطحونين بالقحط ، حتى انه فى تلك السنة لم يأكل إلا الخبز الجاف والزيت ، حتى هزل بدنه الفاره وتغير لونه .

ويروى الطبرى باسناده المرفوعة إلى أبى هريرة :

- يرحم الله ابن حنتمـة ! (أى عمـر) لقـد رأيته عام الرمادة وإنه

ليحمل على ظهره جرابين وعكّة زيت فى يده ، وإنه ليعتقب هو وأسلم ، فلما رآنى عمر قال :

- من أين يا أبا هريرة ؟

قلت :

- قريبا !

« وأخذت أعقبه ، حتى انتهينا إلى صرار ، فإذا صرم (خيام منعزلة) نحو من عشرين بيتا من محارب ، فقال عمر :

- ما أقدمكم ؟

قالوا :

- الجهد !

« وأخرجوا لنا جلد الميتة مشويا ، كانوا يأكلونه ! ورمة العظام مسحوقة كانوا يستفونها ! فرأيت عمر طرح رداءه ثم اتزر ، فما زال يطبخ لهم حتى شبعوا . فأرسل أسلم إلى المدينة فجاء بأبعرة فحملهم عليها حتى أنزلهم الجبانة ، ثم كساهم . وكان يختلف إليهم ، وإلى غيرهم حتى رفع الله ذلك البلاء .

وحرص فى عام الرمادة ألا يأكل وحده داخل بيته أبدا ، بل يولم للناس من بيت المال ، ويجلس ناحية لا يأكل مما يأكلون ، بل أقل عادة مما يأكلون . ويمر به رجل من أصحابه فيدعوه إلى طعامه الخاص ، فيتورط الرجل ويأكل معه الخبز الجاف والزيت ، وعامة الناس تأكل اللحم ! فإذا عاتبه قال له :

- إنما دعوتك إلى طعامى أنا . وذاك طعام المسلمين !

وكان يصنع هذا حتى يعرف الناس أنه لا يأكل خلسة خيرا مما يأكلون ، بل الأمر بالعكس .

أكان بهذا يرجو ثناء الناس ؟ أهو رثاء الناس ؟

كلا ! بل هو العمل على أن يثقوا بعدل الحاكم وإيثاره ، لأن الثقة بالعدل ، لا تقل قيمة عن العدل فى حد ذاته .

إن قاعات المحاكم مرفوع فيها فوق رءوس القضاة .

- وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل !

مكتوبة كى يثق الناس بالعدل . وعلنية القضاء مطلوبة لهذا السبب ، لأن الخفاء مظنة السوء . والثقة بالعدل أساس الحكم ! بل انه ليس العدل فحسب ، بل جمع إليه حب الناس أيضا والرحمة بهم والغيرة الآكلة عليهم !

فنعم ولى الأمر عمر ! وهكذا يكون أبو الأمة ولى الأمر فى مقدرته وحكمته وغيرته ويقظته وفطنته وحزمه ونزاهته وبره ورحمته وإلا فلا !

وأمره مع الولاة عجب !

أجل أمر عمر بن الخطاب مع ولاته وعماله عجب أى عجب ! فلئن كان يخفق بالدرة الرعية ، فهو يشتد على ولاته أضعاف شدته على الرعية . ويعاملهم المعاملة التى لا يستفيدون معها من الرخصة التى يبذلها عمر للمجرمين العاديين من عامة الناس الذين لا منصب لهم ولا نباهة ذكر !

يروى الطبرى عن طارق بن شهاب أنه قال :

- قال عمر فى عماله ! اللهم إنى لم أبعثهم ليأخذوا أموال الناس ، ولا ليضربوا أبشارهم ! من ظلمه أميره فلا إمرة عليه دونى !

وروى عن سعد بن أبى طلحة أن عمر خطب الناس يوم الجمعة فقال :

- اللهم انى أشهدك على امراء الامصار ، انى إنما بعثتهم ليعلموا الناس دينهم وسنة نبيهم ، وأن يقسموا فيهم فيئهم ، وان يعدلوا ، فإن أشكل عليهم شىء رفعوه إلىّ .

ويقول الطبرى أيضا برواية عن أبى حصين أن عمر إذا استعمل العمال خرج معهم يشيعهم فيقول :

- إنى استعملتكم على أمة محمد صلى الله عليه وسلم . . . وإنما استعملتكم عليهم لتقيموا بهم الصلاة وتقضوا بينهم بالحق ، وتقسموا بينهم بالعدل ، وإنى لم أسلطكم على أبشارهم ولا على أشعارهم ، ولا تجلدوا

العرب فتذلوهم ، ولا تجمروهم فتفتنوهم ، ولا تغفلوا عنهم فتحرموهم » .

ويردف بعد ذلك بقوله :

« وكان عمر يقتضى من عماله ، وإذا شُكى إليه عامل له جمع بينه وبين من شكاه ، فان صح عليه أمر يجب أخذه به أخذه به ! »

وعن أبى فراس أن عمر بن الخطاب خطب الناس فقال :

- أيها الناس ! إنى والله ما أرسل اليكم عمالا ليضربوا أبشاركم ولا ليأخذوا أموالكم ، ولكنى أرسلهم إليكم ليعلموكم دينكم وسنتكم فمن فُعل به شىء من ذلك فليرفعه إلى ، فوالذى نفس عمر بيده لأقصنه منه !

فوثب عمرو بن العاص فقال :

- يا أمير المؤمنين ، أرأيتك إن كان رجل من أمراء المسلمين على رعية ، وأدب بعض رعيتك ، إنك لتقصه منه !

قال عمر :

- إى والذى نفس عمر بيده إذن لأقصنه منه ، وكيف لا أقصه منه وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقص من نفسه !

* * *

ولقد أوشك عمرو أن يذوق هذا القصاص بعد أن ذاقه ابنه فى ضربة ضربها ذلك الابن لابن أحد المصريين ، كما ذكرنا آنفا .

بل إن المغيرة بن شعبة أمير البصرة أوشك أن يرجمه عمر فى حد الزنا ، لو لم يشهد عليه الا ثلاثة ، ونصاب الشهادة فى حد الزنا أربعة شهود عدول . . . وبذلك أفلت المغيرة ولم يكد .

ونروى هنا القصة كما أوردها الطبرى ، لأنها ناطقة الدلالة فى صرامة عمر على ولاته ، لأنهم القدوة والأسوة ، كما أنه الاسوة للامة كلها .

« كان الذى حدث بين أبى بكرة والمغيرة بن شعبة أن المغيرة كان يناغيه ، وكان أبو بكرة ينافره عند كل ما يكون منه . وكانا بالبصرة ، وكانا متجاورين بينهما طريق ، وكانا فى مشربتين متقابلتين لهما فى داريهما ، فى كل واحدة منهما كوة مقابلة الأخرى ، فاجتمع إلى أبى بكرة نفر يتحدثون فى مشربته ، فهبت ريح ، ففتحت باب الكوة ، فقام أبو بكرة ليصفقه ، فبصر بالمغيرة ، وقد فتحت الريح باب كوة مشربته ، وهو بين رجلى امرأة ، فقال للنفر من ضيوفه :

- قوموا فانظروا !

فقاموا فنظروا . ثم قال :

- اشهدوا عليه !

قالوا له :

- من هذه ؟

قال أبو بكرة :

- هى أم جميل ابنة الأفقم .

وكانت أم جميل احدى بنى عامر بن صعصعة - كانت غاشية للمغيرة (أى تتردد عليه) وتغشى الأمراء والأشراف (أى تتردد عليهم) - وكان بعض النساء يفعلن ذلك فى زمانها فقالوا لأبى بكرة :

- إنما رأينا أعجازا (جمع عجز) ولا ندرى ما الوجه !

ثم إنهم صمتوا حين قامت . فلما خرج المغيرة إلى الصلاة فى أوانها حال أبو بكرة بينه وبين الصلاة وقال :

- لا تصل بنا !

وكتبوا إلى عمر بذلك . فبعث عمر إلى أبى موسى فقال :

- ياأبا موسى ، إنى مستعملك ! إنى أبعثك إلى أرض قد باض بها الشيطان وفرخ ، فالزم ما تعرف ، ولا تستبدل فيستبدل الله بك !

فقال أبو موسى :

- يا أمير المؤمنين ! أعنيِّ بعدة من أصحاب رسول الله من المهاجرين والأنصار . . .

فاستعان بتسعة وعشرين رجلا منهم أنس بن مالك وهشام بن عامر ثم خرج أبو موسى فيهم حتى أناخ بالمربد ، وبلغ المغيرة أن أبا موسى قد أناخ به فقال :

- والله ما جاء أبو موسى زائرا ولا تاجرا ولكنه جاء أميرا .

فإنهم لفى ذلك إذ جاء أبو موسى حتى دخل عليهم ، فدفع إليه أبو موسى كتابا من عمر ، وإنه لأوجز كتاب كتب به أحد من الناس : أربع كلمات عزل فيها وعتب واستحث وأمر :

- أما بعد ، فإنه بلغنى أمر عظيم ، فبعثت أبا موسى أميرا فسلم إليه ما فى يدك . والعجل !

وكتب إلى أهل البصرة :

- أما بعد ، فإنى قد بعثت أبا موسى أميرا عليكم ، ليأخذ لضعيفكم من قويكم ، فليقاتل بكم عدوكم وليدفع عن ذمتكم ، وليمض فيكم فيئكم ثم ليقسمه بينكم ، ولينقى لكم طرقكم .

« وأهدى المغيرة إلى أبى موسى جارية مولدة من مولدات الطائف تدعى عقيلة » وقال :

- انى قد رضيتهالك !

وكانت جارية فارهة . ثم ارتحل المغيرة وأبو بكرة ونافع بن كلدة وزياد

وشبـل بن معبد البجلي (شهود التهمة الأربعة) حتى قدموا على عمر ، فجمع بينهم وبين المغيرة .

مواجهة في مجلس تحقيق وقضاء ، شأن أي متهم بريبة . . .

ويستطرد الطبرى :

فقال المغيرة :

- سل هؤلاء كيف رأونى ؟ أمستقبلهم أو مستدبرهم ؟

وكيف رأوا المرأة أو عرفوها ؟ فإن كانوا مستقبلى فكيف لم أستتر منهم ؟ أو مستدبرى فبأى شيء استحلوا النظر إلى في منزلى وأنا على امرأتى ؟ ! والله ما أتيت إلا امرأتى - وكانت شبه من ظنوها هي !

فبدأ عمر بأبى بكرة ، فشهد عليه أنه رآه بين رجلى « أم جميل » وهو يدخله ويخرجه كالمرود في المكحلة !

فسأل عمر :

- كيف رأيتهما ؟

قال أبو بكرة .

- وأنا مستدبرهما !

فقال عمر :

- فكيف استثبت رأسها ؟

قال :

- حين تحاملت (لتقوم)

ثم دعا شبل بن معبد فشهد مثل ذلك . فسأله عمر :

- استدبرتهما أو استقبلتهما ؟

قال :

- استقبلتها .

وشهد نافع بمثل شهادة أبى بكرة .

وهكذا تمت الشهادة عليه وهو فى نفس الفعل من ثلاثة ، وبقى الرابع الذى به يكمل النصاب ، ويحق عليه حد الرجم . . .

يقول الطبرى :

- ولم يشهد زياد بمثل شهادتهم ، قال :

- رأيته جالسا بين رجلى امرأة ، فرأيت قدمين مخضوبتين تخفقان ، واستين مكشوفتين وسمعت حفزانا (تنفسا) شديدا .

ولم يكتف عمر بهذا ، بل أراد التثبت من بقية أركان الزنا ، ولا حياء فى الدين . ولا فى القضاء ، لذا قال له :

- هل رأيت كالمرود فى المكحلة ؟

فقال :

- لا

فعاد عمر يسأله :

- فهل تعرف المرأة ؟

(ذلك أنه إن لم يشهد بأنها غريبة عنه قطعا ، كانت حليلة فلا جناح عليه)

وقال الرجل :

- لا . ولكن أشبهها . .

ولكن الجرائم لا تثبت بالشبه بل بالتثبت ، ولذا قال له عمر :

ـ تنحّ جانبا !

وبـذلـك أفلت المغيرة من الرجم ، ووجب حد رمى المحصنين والمحصنات على من اتهموه . . .

وأمر عمر بالثلاثة فجلدوا الحد ، وقرأ :

ـ فإذا لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون !

فقال له المغيرة :

ـ اشفنى من هؤلاء الأعبد (أى خذ لى بثأرى منهم) .

فقال عمر :

ـ اسكت ! أسكت الله نأمتك ! أما والله لو تمت الشهادة لرجمتك بأحجارك !

واضح لذى عينين أن عمر بن الخطاب لا يقف دون آخر المدى فى التشدد مع عماله ، ويواجههم برعيتهم الشاكين منهم ، وهو مستعد للذهاب إلى حد رجمهم متى تثبت عليهم التهمة .

بل إنه كان يحرض الرعية على اللجوء إليه لشكوى عماله ، فيواجههم بأصحاب الشكوى وهم وإياهم على قدم المساواة ، كى يشعر الرعية أن الأمر أمرهم ، وأن الأمراء أجراؤهم وخدمهم فى حقيقة الأمر ، كما أن أمير المؤمنين خادم المؤمنين !

أما من تهمته دون حد الرجم ـ الذى لابد فيه من درء الحدود بالشبهات ومنها « عدم كفاية الأدلة » كما فى واقعة المغيرة ـ فالشبهة وحدها كافية لعزل الأمير الذائع الصيت ، الذى طوقته الفتوح بأكاليل الغار ، أو لمقاسمته أمواله على أقل التقدير . . . فقد كان يتعقبهم بعيون له عليهم فى بيوتهم هم أشبه « بالمخابرات » .

وهل فى الأمراء من هو أبرز من سيف الله المسلول ، خالد بن الوليد . يكفى أن نورد هنا تصوير الطبرى لعزله بصورة تفيض بالمهانة !

ما زال خالـد أميرا على قنسرين حتى غزا غزوتـه التى أصاب فيها (غنائم كثيرة) وقسم فيها ما أصاب لنفسه .

وبلغ عمـر أن خالـدا دخل الحمام فتدلك بعد النورة بثخين عصفر معجون بخمر ، فكتب إليه :

- بلغنى أنك تدلكت بخمر ، وإن الله قد حرم ظاهر الخمر وباطنه ، كما حرم ظاهر الإثم وباطنه ، وقد حرم مس الخمر إلا أن تغسل كما حرم شربها ، فلا تمسوها أجسادكم فانها نجس ، وان فعلتم فلا تعودوا .

فكتب إليه خالد :

- إنا قتلناها (أضفنا إليها الماء الكثير) فعادت غسولاً غير خمر .

فكتب إليه عمر :

- إنى أظن آل المغيرة قد ابتلوا بالجفاء ، فلا أماتكم الله عليه !

وبعد فترة وجيزة غزا خالد تخوم الروم وأصاب أموالا عظيمة . ولما فعل خالد (كما يقول الطبرى) وبلغ الناس ما أصابت تلك الصائفة (أى تلك الغزوة الصيفية) انتجعه (قصده) رجال من الآفاق . وكان الأشعث بن قيس ممن انتجع خالدا بقنسرين ، فأجازه خالد بعشرة آلاف (درهم) .

« وكان عمر لا يخفى عليه شىء فى عمله . . » .

(إنها عيونه أو « مخابراته » التى اشتهر أمرها) يبثهم على عماله .

فكتب إليه (عيونـه) من العراق بخروج من خرج (قاصدا خالد) وكتب إليه (عيونـه) من الشام بجائزة من أجيز فيها ، فدعا عمر البريد وكتب معـه إلى أبى عبيدة (وكـان رئيسـا لخالد) أن يقيم خالدا ويعقله

بعمامته ! وينزع عنه قلنسوته ! حتى يخبرهم من أين أتى بما أجاز به الأشعث : أمن ماله أم إصابة أصابها ؟ فان زعم أنها من إصابة أصابها فقد أقر بخيانة وإن زعم أنها من ماله فقد أسرف ! »

ألست تراه وضع خالدا على قرنى الإحراج ؟

ويستطرد عمر فى كتابه إلى أبى عبيدة :

« واعزله على كل حال ، واضمم إليك عمله ! »

فكتب أبو عبيدة إلى خالد ، فقدم عليه ، ثم جمع الناس وجلس لهم على المنبر ، فقام البريد فقال :

ـ ياخالد ، أمن مالك أجزت بعشرة آلاف أم من إصابة ؟

فلم يجبه خالد حتى أكثر عليه ، وأبو عبيدة ساكت لا يقول شيئا . فقام بلال (مؤذن النبى) إليه فقال :

ـ إن أمير المؤمنين أمر فيك بكذا وكذا !

ثم تناول بلال قلنسوته فعقله بعمامته وقال له :

ـ ما تقول ؟ أمن مالك أم من إصابة ؟

قال خالد :

ـ لا . بل من مالى !

فأطلقه بلال وأعاد قلنسوته ثم عممه بيده ثم قال :

ـ نسمع ونطيع لولاتنا ، ونفخم ونخدم موالينا !

وأقام خالد متحيرا لا يدرى أمعزول أم غير معزول ؟ وجعل أبو عبيدة لا يخبره حتى إذا طال على عمر أن يقدم إليه خالد ، ظن الذى كان ، فكتب إلى خالد بالاقبال (أى يستدعيه) . فأتى خالد أبا عبيدة ، فقال :

- رحمك الله ! ما أردت إلى ما صنعت ؟ كتمت أمرا كنت أحب أن أعلمه قبل اليوم !

فقال أبو عبيدة :

- انى والله ما كنت لأروعك ما وجدت لذلك بداً . وقد علمت أن ذلك يروعك !

فرجع خالد إلى قنسرين فخطب أهل عمله وودعهم وتحمل ، ثم أقبل على حمص ، فخطبهم وودعهم ، ثم خرج نحو المدينة حتى قدم على عمر فشكاه ، وقال :

- قد شكوتك إلى المسلمين ! وبالله إنك فى أمرى غير مجمل يا عمر !

فقال عمر :

- من أين هذا الثراء يا خالد ؟

(إنه بعينه ما ظننا اننا استحدثناه بأخرة من مبدأ « من أين لك هذا »)

قال خالد :

- من الأنفال والسهمان . وما زاد عن الستين ألفا فهو لك !

فقوّم عمر عروضه (أملاكه) فزادت عشرين ألفا عن هذا القدر فأدخلها عمر بيت المال . ثم قال :

- يا خالد ! والله إنك علىّ لكريم ! وانك إلىّ لحبيب ، ولن تعاتبنى بعد اليوم على شىء . . . »

ويقول الطبرى بعد هذا أن عمر كتب إلى الامصار :

- إنى لم أعزل خالدا لسخطة ولا خيانة ، ولكن الناس فتنوا به ! فخفت أن يوكلوا إليه ويبتلوا به ، فأحببت أن يعلموا ان الله هو الصانع ، ولا يكونوا بعرض فتنة ! »

هذا إذن هو مربط الفرس : مخافة الفتنة . بالاضافة إلى مخافة « استغلال النفوذ للاثراء » . . .

أما أولى هاتين المسألتين ، فهى أخطرهما فى نظر رجل الدولة المترامية الارجاء . وأما المسألة الأخرى فهى آفة الحكم والادارة فى أى دولة كبرت أو صغرت .

وكأن عمر كان ينظر بعين الغيب إلى أحوال الدولة الاسلامية حين ترك الـولاة فيها على غفلة من الخلفاء ـ فإذا بهم يستقلون بولاياتهم ويورثونها ذراريهم . . حتى تفككت الدولة واضمحلت وحدتها وشوكتها .

ولو كان عمر عارفا بالتاريخ ، لقلنا انه عرف عبرة الامبراطوريات وما ابتليت به من التفكك من هذا الباب الخطير . . .

وهـذا يفسر لنـا انـه لم يعـزل خير المشـاهـير الصناديد الذين فتحوا الأقطار ، مثل سعد بن أبى وقاص ـ لشبهة بل إرضاء لفريق من الشاغبين عليه ، وإنما عذر أمضاه به عن الامارة ـ مع ان سعدا البطل الصنديد غير متهم عنده فى أمانته . . فهو أحد الستة الذين وكل إليهم اختيار أحدهم ليكون خليفته ، فكيف يكون عنده إلا أمينا . . .

وخالد بن الوليد الذى ذكرنا أمر عزله ، وتعمده تصغيره على ملأ كأنه واحد من عرض الناس ، حتى يكسر هيبته الاسطورية عند الجند .

وعمرو بن العاص كم تعقبه بتهمة استغلال النفوذ ، وكان يضمر عزله لولا أن عاجله الأجل . . .

أما من ليست لهم هذه الأكاليل من الغار ، ولا يخشى فتنة الجند بهم ، ولا افتتانهم بالشهرة والنفوذ فتحدثهم أنفسهم بشق الطاعة ، فلم يعزلهم ، مثل معاوية بن أبى سفيان الذى كان أميرا على الأردن . وإن كانت عينه عليه ليعرف أيستغل نفوذه أم لا . . .

« وخشية الفتنة » إجراء احتياطى لابد منه لسلامة أمن الدولة . أما اليقظة لاستغلال النفوذ فإجراء لا يقل عنفا عن العزل اتقاء الفتنة . إذ كان أول من سن قانون « من أين لك هذا » . فكان يحصى ثروة الوالى عند توليته (أليس هذا هو بعينه الإقرار بها فى الذمة المالية) ثم يحصى بعد ذلك ما يزيد من ثروته ، فيضمه إلى بيت المال . أى يصادره لحساب الخزانة العامة فإن قال الأمير أنه ادخره من راتبه رأف به وقاسمه ماله ، فضم نصفه إلى بيت المال . . .

وكان رسوله للمحاسبة لا يدع عند القسمة شيئا إلا أخذ نصفه ، حتى أن خالد بن الوليد أخذ إحدى نعليه وأعطى الرسول الأخرى ، ولما قال له رسول عمر :

ـ ولكن هذه لا تصلح إلا بتلك !

قال خالد :

ـ أنا أعرف منك بعمر ! لن يعفيك من المؤاخذة إن تركتها !

وكان شأنه مع عمرو بن العاص ، على ما يروى المؤرخون شأن المرتاب ، فسمعة ثراء مصر ومجدها التالد ، وأنها درة أقاليم الأرض ، جعلته يقرر احتفاظه بمعظم خراجها لنفسه ، مغالطا ، ومتعللا بحاجة المرافق إلى الاصلاح وهو باهظ النفقات ، بعد ماأحدثه الاحتلال الرومانى الطويل من المظالم والاهمال والخراب .

وكان عمر فى كتبه إليه عنيفا ، ظاهر التعريض بذمته ، ومن ذلك قوله :

ـ لقد أكثرت فى مكاتبتك فى الذى على أرضك من الخراج ، وظننت أنه سيأتينا على غير نزر ، ورجوت أن تفيق فترفع ذلك إلى . فإذا أنت تأتينى بمعاريض تبعث بها لا توافق الذى بنفسى . ولست قابلا منك دون الذى

كانت تؤديه مصر من الخراج قبل ذلك . ولست أدرى ما الذى نفرك من كتابى وقبضك ، فلئن كنت مجزئا كافيا صحيحا إن البراءة لنافعة ، وإن كنت مضيعا إن الأمر لعلى غير ما تحدث به نفسك ! . . . وعندى بإذن الله دواء فيه شفاء عما أسألك عنه ، فلا تجزع أبا عبدالله أن يؤخذ منك الحق وتعطاه ! . . . والحق أبلج ، فدعنى وما عنه تلجلج ، فانه قد برح الخفاء والسلام !

ولما رد عليه عمرو متذمرا من هذا التهديد ، زاد عليه شدة وكتب يقول :

- . . . لم أقدمك إلى مصر أجعلها طعمة لك ولا لقومك ، ولكنى وجهتك لما رجوت من توفير الخراج وحسن سياستك . فإن أتاك كتابى هذا فاحمل الخراج فانما هو فىء المسلمين !

هو الشك الصريح إذن فى ذمة عمرو المالية !

واستنظره عمرو إلى ان يحصد الناس غلة أرضهم فى موسمها ، فضاق عمر ، وقرر أن يطبق عليه قانون « من أين لك هذا ؟ » باحصاء ما اقتناه عمرو بعد ولايته ، فكتب إليه باتهامه صراحة :

- إنه قد فشت لك فاشية من متاع ورقيق وآنية وحيوان لم يكن لك حين وليت مصر .

فرد عليه عمرو :

- إن أرضنا أرض مزدرع ومتجر ، فنحن نصيب فضلا (زيادة) عما نحتاج إليه لنفقتنا . .

فكتب إليه عمر :

- . . . قد سؤت بك ظنا ، ووجهت إليك محمد بن مسلمة ليقاسمك مالك ، فأخرج إليه ما يطالبك ، وأعفه من الغلظة عليك فإنه برح الخفاء !

وقاسم محمد بن مسلمة عمرًا ماله ! وغضب ابن العاص ، أحد وجهاء قريش الكبار وحامى عمر بن الخطاب يوم كاد يفتك به المشركون ، وقال متأففا :

ـ ان زمانا عاملنا فيه ابن حنتمة هذه المعاملة لزمان سوء ! لقد كان العاصى (أبوه) يلبس الخز مكففا الديباج !

معرضا بذلك بفقر عمر فى الجاهلية وسوء حاله وحال أبيه الخطاب ، ولولا أنه رجا ابن مسلمة الا ينقل هذه الكلمة إلى عمر ، لكان عجل بعزله . ونحسب عمر كان عازله على كل حال لو لم تبادره منيته .

وكان هذا حاله مع سائر ولاته ، اتقاء لفساد الحكم وفساد الذمم . وما كان يكتفى ببث العيون عليهم لتسقط أحوالهم الخاصة ، فقد روى الطبرى أنه كان ينوى التجوال فى الأقطار التابعة له ليتفقد أحوال الناس ويسمع شكاياتهم ومظالمهم بنفسه . ففى روايته المرفوعة إلى الحسن ، أن عمر قال :

ـ لئن عشت ان شاء الله لأسيرن فى الرعية حولا ، فانى أعلم ان للناس حوائج تقطع دونى (أى يحال بينها وبين الوصول إلىّ) . أما عمالهم فلا يرفعونها إلى ، وأما هم فلا يصلون إلىّ ، فأسير إلى الشام فاقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى الجزيرة فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى مصر فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى البحرين فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى الكوفة فأقيم بها شهرين ، والله لنعم الحول هذا !

ولكن هذا المشروع الذى لم ينفسح له الأجل كى يتمه من « التفتيش » على البلاد والأقطار ، لم يمنعه من البديل الحسن ، وهو انتهاز فرصة موسم الحج الذى يحضر فيه كثيرون من الناس للحج ، فيقدم الأمراء أيضا ، ويكون ثمة « مؤتمر » حافل ، يواجه فيه الشاكين بأمرائهم ، ويحقق بنفسه فى شكاواهم !

ولكن عزله الولاة والأمراء مخافة الفتنة ، وأخذا بالأحوط ، جعل سياسته فيهم نقيض مبدأ القضاء فى الجرائم ، فهو لا يأخذ المتهم بالشبهة ، بل بالبينة القاطعة ، وكل شك يفسر لمصلحة المتهم ويؤدى لبراءته « لعدم كفاية الأدلة » . أما الولاة فهو يأخذهم كما قلنا بالشبهة لأن الأمر لا يتعلق بضرر يلحقهم ، بل يلحق الحكم والدولة بأسرها . و« هان أمر يصلح الناس أن يبدلهم أميرا محل أمير» .

من هذا نفهم انه نظر إلى الأمراء نظره إلى نفسه . فهو فى نظر نفسه أداة للحق ودولة الايمان وخدمة الناس كافة . وهم فى نظره أدوات لخدمة الناس من رعيتهم . مجرد أدوات . وأيما ضرر خيف من أداة ، فالأحوط اطراحها واتخاذ غيرها ! . . .

حكمة أريب .

وأما رأيه فى الحاكم الفاسد الخرب الذمة الذى يستغل منصبه أو نفوذه ، وما يجب أن ينزل به من العقاب ، فيرويه الطبرى بسند مرفوع إلى موسى بن عقبة ، على النحو التالى :

أتى رهط إلى عمر فقالوا :

- كثر العيال ، واشتدت المئونة ، فزدنا فى أعطيتنا !

فقال عمر :

- فعلتموها ! جمعتم بين الضرائر ، واتخذتم الخدم من مال الله عز وجل ! أما والله لوددت أنى وإياكم فى سفينة فى لجة البحر ، تذهب بنا شرقا وغربا ، فلن يعجز الناس أن يولوا رجلا منهم ، فإن استقام اتبعوه ، وإن جار قتلوه !

فقال له طلحة :

- وما عليك لوقلت إن تعوج عزلوه ؟

فقال عمر :

ـ لا ! القتل أنكل لمن بعده .

والقتل أنكل ، أى أشد ردعا وتخويفا لمن بعده .

وحسبك هذا إعظاما للنزاهة ، وكراهة ومقتا للجور وفساد الحكم !

ولكن هل كان غير منطو على حب أو مودة أو تقدير لهؤلاء الرجال الكبار ، ومنهم « أمين الأمة » أبو عبيدة ، وسعد بن أبى وقاص الذى كان من الستة الذين حصر فيهم عمر الترشيح للخلافة ؟

بل كان يحبهم ويقدرهم ، وينادى ببراءتهم من كل خيانة ، ولكنه يفصل بين الحب ومصلحة الدولة . فهم بمُنظور العمل ومصلحة الدولة مجرد أدوات ـ كما أنه هو أداة عليا وحذره من نفسه الدنيا وفتنتها لا يفتر . أما بمنظور شخصه فهم محبوبون أثيرون . . . وهو لا يخلط بين ما يخص شخصه ، وما يخص مصلحة الدولة . . .

ألم أقل لك إن أمره مع الولاة عجب ؟

ولكن إذا عرف السبب . . .

ونعم ولى الأمر عمر . ونعم المثل للحاكم الحكيم الأمين هو !

[illegible]

نحن سميناه الفاروق !

[illegible]

وإذ أقول « نحن » سميناه الفاروق ، أعنى أن المسيحيين هم الذين أطلقوا عليه هذا اللقب ، الذى صار علما عليه فى التاريخ . فلفظ الفاروق ليس لفظا عربيا أصيلا ، بل هو ـ كما يقول البطريق « مار يعقوب أغناطيوس الثالث » بطريق السريان الارثوذكس ، وهو العالم اللغوى المتمكن ـ لفظ من أصل سريانى آرامى ، فهو يعنى فى اللهجة السريانية الغربية « المخلِّص » . وأما فى اللهجة السريانية الشرقية فاللفظ هو « باروق » ، بمعنى المخلص أيضا . سموه هكذا لأنه هو الذى خلصهم من ظلم البيزنطيين وجورهم .

ويؤيد ابن سعد فى طبقاته القول بأن أهل الكتاب هم الذين سموه الفاروق . وليس هناك دليل ثابت على ما يشاع من أن النبى هو الذى أطلق عليه هذه التسمية . وإن كان الواحدى فى أسباب نزول الآية ٦٠ من سورة النساء ذكر واقعة أسس عليها إطلاق جبريل هذا اللقب عليه . وكان جور البيزنطيين ـ مع أنهم مسيحيون ـ على المسيحيين المخالفين لهم فى النحلة شيئا رهيبا جدا . وحسبك انهم فى مصر شردوا رؤساء القبط الدينيين ، ودخل عمرو مصر ليجد البطريق بنيامين هاربا ، مختفيا عن العيون منذ سنين ! فناهيك إذن بما يلقاه من هم دونه فى المكانة ، حتى استشهد كثيرون منهم .

وفى الشام ، حيث بيت المقدس كان الاضطهاد لا يقل عن هذا عنفا . وكانت طائفة السريان أوفى هذه الطوائف نصيبا من الظلم البيزنطى

الذى نزل بهم . فلما أقبل العرب فاتحين ، هفت القلوب إلى الخلاص من جور أولئك الرومان الشرقيين ، وتسامعوا بعدل خليفة المسلمين عمر بن الخطاب .

وأبى بطريق القدس (وكانت أيضا تسمى إيلياء) ان يسلم المدينة المقدسة العظمى عند مسيحيى العالم أجمع الا للخليفة نفسه .

وأقبل عمر إلى الشام وبيت المقدس فى هيئة اسطورية ، اطنب المؤرخون فى تصوير بساطتها الرائعة ، التى تناقض أبهة الروم المعهودة هناك تناقض الليل والنهار !

وما تصور أحد أن موكب هذا الفاتح الذى غزت جيوشه آفاق الأرض يكون جملا يركبه عمر ، وعليه غرارتان فى إحداهما تمر ، وفى الأخرى دقيق ، وفى المؤخرة حقيبة زاد ، وأمامه قربة ماء ! ومن خلفه بضعة جمال أخرى عليها النفر الذين صحبوه فى سفره هذا . . .

أما طيلسان الفاتح العظيم فلم يكن أرجوانا مزخرفا بالذهب ، أو درعا مذهبة وقلنسوة مرصعة . وإنما هى صلعة أمير المؤمنين تلمع فى وهج الشمس ، وعليه ثوب به عدة رقع ، وفى قدميه خف وليس له ركاب . حتى إذا اعترضت سبيله مخاضة ، ترجل عن جمله ، وخلع خفه فأمسكه فى يده ، وقاد جمله فعبر به المخاضة حافيا !

واستقبله قواده الكبار : أبو عبيدة ، وزيد بن أبى سفيان ، وخالد بن الوليد فى كتائب الجند المكردسين ، تهز عدتهم المشاعر ، وعلى رأسهم قادتهم وقد لبسوا الحرير والخز والديباج فى أبهة صدمت عمر الزاهد المتقشف، فأخذ يزجرهم . . ولما نبهه أبو عبيدة ـ وهو عنده أمين وله عليه دالة ـ إلى أن مظهره المغرق فى البساطة خليق أن يبلبل أفكار أهل الاقليم ويهولهم ما يضع من أمر نفسه ! عندئذ دفعه عمر دفعة عمرية فى صدره وقال له مسخطا ضائق الصدر :

- أو غيرك يقولها يا أبا عبيدة ! إنكم كنتم أذل أهل الدنيا وأحقر الناس ، فأعزكم الاسلام . فمهما تطلبوا العزة بغيره يذلكم الله !

وعرضوا عليه برذونا فارها يدخل به المدينة المقدسة ، لأن الجمال كما زعموا لا تصلح لهذه الأرض ، فلما ركبه ورآه يتبختر به ، قال :

- هذا مركب الشيطان ومدخل العجب والغرور !

وأسرع ينزل عنه ، ثم ركب جمله وقال لهم :

- خلوا عن جملي !

ويقال دخل بقميصه الكثير الرقع ، الذى تراكمت عليه أتربة السفر الطويل ، إلى حيث الأسقف ، فأعطاه القميص وطلب إليه أن يرقعه له ، لأن البلى كان قد أصاب مواضع أخرى فيه ! فغسله الأسقف ورقعه ، وصنع له قميصا مثله ، وقدمهما إليه . فسأله عمر :

- وماهذا القميص ؟

فقال الأسقف .

- هو لك هدية !

فلبس عمر قميصه المرقع وهو يقول :

- بل حسبى هذا . فهو أنشف للعرق !

فماظنك إذن بهذا الدخول الاسطورى الذى لا تبلغ عشر معشار تأثيره مواكب الغزاة التى تضج بالسلاح والزينة والأبهة ؟

هؤلاء الرهبان قوم زهادة ونسك ، وهبوا حياتهم للتقشف واحتقار الدنيا ، اقتداء بزهد المسيح وتقشفه . وهم لا يملكون من الدنيا كثيرا ولا قليلا . . فإذا هذا الرجل أشد منهم شبها بزهادة المسيح ونسكه ، وفى يده مفاتيح كنوز الدنيا ومقاليد حكمها ، وهو لا يبالى بذلك !

هم أولى الناس أن يكبروا شأنه ، ويدركوا عظمته الروحية !

كانت قد سبقت دخول المدينة كتابة عقد الصلح مع وفد البطريق فى الجابية وإذا به يصالحهم على شروط أسخى بكثير من شروط صلح دمشق وغيرها من أنصار الشام ، إعظاما منه للمدينة المقدسة .

ويورد الطبرى نص هذا الصلح السخى :

صالح عمر أهل إيلياء (بيت المقدس) بالجابية ، وكتب لهم فيها الصلح :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان : أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم ، وكنائسهم وصلبانهم ، وسقيمها وبريئها وسائر ملتها ، انه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ، ولا ينتقض منها ولا من حيزتها ، ولا من صليبهم ولا من شىء من أموالهم . ولا يكرهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم . ولا يسكن بايلياء معهم أحد من اليهود . وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن، وعليهم ان يخرجوا منها الروم والسراق (أى اللصوص) . فمن خرج منهم فانه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم . ومن أقام منهم فهو آمن . وعليه مثل ما على أهل ايلياء من الجزية . ومن أحب من أهل ايلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلى بيعهم وصلبهم فانهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم ، حتى يبلغوا مأمنهم . ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان ، فمن شاء منهم قعدوا عليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية . ومن شاء سار مع الروم . ومن شاء رجع إلى أهله فانه لا يؤخذ منهم شىء حتى يحصد حصادهم . وعلى ما فى هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذى عليهم من الجزية . شهد على ذلك خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية بن أبى سفيان . وكتب وحضر سنة خمس عشرة » .

فكيف لا يبهر الناس بهذا الزهد ، وهذا العفو عند المقدرة ، وهذه السماحة . وأين هذا من صلف الرومان وبطشهم وجورهم ؟ وكيف بعد هذا لا يرون فيه « المخلّص » ؟

ويستطرد الطبرى بعد ذلك فيصف فرح أهل إيلياء والبطريق بهذا الصلح السخى ، ثم يقول :

« وبعدها شخص عمر إلى بيت المقدس من الجابية ، فرأى فرسه يتوجى (أى يتألم من وجع أو إصابة فى حافره) فنزل عنه ، فأتوه ببرذون (بغل) فركبه ، فهزه (متبخترا) فنزل عنه ، فضرب وجه البرذون بردائه ثم قال :

ـ قبح الله من علمك هذا ! هذا من الخيلاء !

ثم دعا بفرسه بعدما أجمه (أراحه) أياما حتى صلب حافره ، فركبه ثم سار حتى انتهى إلى بيت المقدس .

« وعن أبى مريم مولى سلامة قال : شهدت فتح إيلياء مع عمر رحمه الله ، فسار من الجابية فاصلا حتى يقدم ايلياء ، ثم مضى حتى يدخل المسجد (يعنى الكنيسة الكبرى) ، ثم مضى نحو محراب داود ، ونحن معه ، فدخله ثم قرأ سجدة داود ، فسجد وسجدنا معه .

وفى رواية عن رجاء بن حيوة أن كعبا قال لعمر :

ـ يا أمير المؤمنين ! إنه قد تنبأ على ما صنعت اليوم نبى منذ خمسمائة عام .

فقال عمر :

ـ وكيف ؟

فقال كعب :

ـ ان الروم أغاروا على بنى اسرائيل فاديلوا عليهم ، فدفنوه (بيت القدس) ثم أديلوا فلم يفرغوا له حتى أغارت عليهم فارس ، فبغوا على بنى اسرائيل ، ثم اديلت الروم عليهم إلى ان وليت انت . فبعث الله نبيا على الكناسة (الكنيسة) فقال : « ابشرى اورى شلم ! الفاروق ينقيك مما فيك ! » . . . وعن ربيعة الشامى مثل هذه الرواية ، وزاد عليها :

ـ أتاك « الفاروق » فى جندى المطيع ، يدركون لأهلك ثأرك من الروم . . . »

ونحن نترك من كل هذه الروايات تفصيلاتها التى قد ينتابها النقصان أو الزيادة ، ونستبقى منها على كل حال أن « عمر » صار فى نظر أهل ايلياء بزهادته وحمايته حقوق النصارى المضطهدين نعم « المخلص » ، فأسموه « الفاروق » . . . فصار « الفاروق » علما عليه إلى يومنا هذا . . . حتى قال الشاعر المعاصر :

مفـرق الحق والضـلال أتى   فادع منه الفاروق أو عمرا . . .

وقد بلغ من تحرج عمر واحتياطه لحقوق المسيحيين فى كل مكان ، إنه عندما حان موعد الصلاة ، وأراد البطريق أو الأسقف له أن يصلى فى الكنيسة ، أبى ، وخرج إلى سلمها الخارجى ، حتى لا يطالب المسلمون من بعده بالكنيسة ، قائلين إنها « مصلى عمر » . . .

نعم « الفاروق » هو .

ونعم ولى الأمر هو لأهل دينه وغير دينه على السواء !

نعم البطل هو على الجملة ، ونعم المثل !

وما أبره بأهل الذمة !

ولم تكن هذه سياسته مع مسيحيى القدس والشام فحسب ، بل مع أهل الذمة كافة ، فى مصر أيضا ، وفى العراق وفى المدينة نفسها . فقد كانت « حرية العقيدة » سائدة فى عاصمة الاسلام نفسها على عهده . فعاش فيها أفراد من النصارى ومن اليهود ، معظمهم من أصحاب الحرف أو الاسرى الوافدين من الفتوح . وحسبك أن أبا لؤلؤة الذى قتل عمر يقال انه كان عبدا نصرانيا ، وان غيره من الأحرار أيضا كانوا فيها من النصارى ، وبعضهم من اليهود .

وكان لعمر عبد نصرانى نجيب اسمه « أسبق » ، عرض عليه عمر أن يسلم ويتخذه عاملا له على بعض الامصار ، فأبى أن يترك النصرانية ، فماكان منه إلا أن أعتقه لوجه الله الكريم وقال له :

ـ اذهب حيث شئت !

وفيمن بقى من اليهود بالمدينة كان شيخ أعمى رآه يسأل ، فتألم عمر ، وقال :

ـ ما أنصفناه ! أكلناه لحما ونرميه عظما !

ثم أمر بتسجيل سائر أمثاله من العجزة الذميين كى يكون لهم من بيت مال المسلمين ما يكفيهم الحاجة ! وما كان اليهود أحب الذميين إليه بطبيعة الحال !

وهذا هو معنى أنهم « أهل الذمة » وهو يتأدب فى هذا بأدب بنبيه الذى قرر أن من آذى ذميا كان النبى خصمه يوم القيامة .

فاذا تركنا المدينة ، رأينا قبيلة تغلب العربية ، التى سيكون منها الشاعر الأخطل فيما بعد باقية على النصرانية لا ترضى عنها بديلا . ويذكر الرواة أن الاخطل كان فى بلاط بنى أمية يعلق فى صدره صليبا ضخما . وأنفت تغلب أن تدفع الجزية ، فاللفظ لا يتفق وما للعرب من أنفة وحمية . وأبوا إلا أن يؤدوا « الصدقة » التى يؤديها المسلمون . . . واشتد الخلاف ، وانتهى الأمر إلى أدائهم صدقة المسلم مضاعفة . وليس هينا أن يلين عمر لهم هذا اللين ، حفظا لكرامتهم وصونا لأنفتهم ويروى عنه أنه قال :

ـ نحن نسميها جزية ، وسموها أنتم ما شئتم !

ولكن الأمر انتهى إلى أنها الصدقة الواجبة على المسلم مضاعفة .

وما كانت الجزية إلا ما نسميه اليوم « بدل التجنيد » ، أى مقابل قيام المسلمين بالدفاع عن الذميين عسكريا ، لأنه لا ينخرط فى سلك الجندية بالدولة الاسلامية ـ والدولة يومئذ دينية لا قومية ـ أحد من غير المسلمين . إنها ضريبة الدفاع وضريبة الأمن . ومقطوع بأن الذميين فى ذلك العهد كانوا يدركون أيضا أن الدولة دينية لأن القومية لم تكن قد برز مفهومها بروزه فى العصور الحديثة ، ولذا كانوا يقبلون تلك الجزية فرحين . وأما موقف التغالبة فمرده إلى الأنفة العربية والمجد التالد فيها . . .

وكان الوليد بن عقبة حين غزا بنى تغلب قد فرض عليهم الاسلام ، فشكوه إلى عمر ، فأنصفهم وأدان الوليد بن عقبة ، فالدين لا يجوز أن يفرض على أهل الكتاب بالسيف . إلا من شاء الاقامة بجزيرة العرب نفسها . فهو مخير بين الاسلام أو الارتحال عن قلب الجزيرة إلى أطراف العراق أو الشام . وما كان التغالبة فى قلب الجزيرة . ولكنه اشترط عليهم ألا يمنعوا أحدا من أفرادهم إن أراد اعتناق الاسلام .

وكان لهذا « الانصاف » العمرى أثره ، فمنهم من أسلم ومنهم من ظل على نصرانيته . ولكنهم رفضوا مسبة الجزية ، وذهب وفد منهم إلى المدينة لمفاوضة عمر . وتوسط لهم على بن أبى طالب عندما اشتد الحوار ، وقال لهم عمر فى حسم :

- أما نحن فنسمى ذلك جزية ، وسموه أنتم ما شئتم !

فألان علىٌ قلب عمر ، وقال له :

- وماذا تريد منهم وقد ضعَّف عليهم سعد بن مالك الصدقة ؟

فرضى منهم بالصدقة بدلا من الجزية . . .

وبيت القصيد من هذه الواقعة أنه كان حريصا على عدم إعنات المتمسكين بنصرانيتهم . وكل ما هناك أنه كان - لأسباب تتعلق بالسياسة العليا كما نقول نحن الآن - قد قرر ألا تقيم قبائل غير مسلمة فى داخل الجزيرة العربية ، زيادة فى الحيطة ، حتى لا يوجد ما يمكن أن يكون « طابورا خامسا » فى قلب الدولة لحساب الروم المتربصين . . .

وقد بدأت سياسته هذه مع أهل نجران فى جنوبى الجزيرة العربية . وكان النبى قد عاهدهم على الجزية ، فكلف عمر عامله « يعلى بن أمية » أن يجلى أهل نجران إلى حيث يختارون من الأرض التى بها قوم على ملتهم خارج جزيرة العرب .

وشدد عمر على يعلى بن أمية ألا يجبرهم على الاسلام ، ولا يغريهم أو يضغط عليهم ليفتنهم عن دينهم . فوافقوا على الارتحال إلى العراق ، وكتب عمر إلى عامله هناك أن يوسع لهم فى الأرض التى يختارونها بما يسعهم وييسر لهم الحياة ، وسط جيران من ملتهم .

وكان مما أوصى به يعلى بن أمية أيضا أن يشترى منهم بمقابل سخى

ما يتركـونه من العقار والأموال التى لا تنقل ، وأن ينقلوا معهم صلبانهم وأدوات شعائرهم كما يحبون ويشتهون .

وكذلك فعل أيضا بعشائر اليهود أو جيوشهم الباقية فى الجزيرة بخيبر أوفدك فأجلاهم إلى الشام مع أشباههم من أهل دينهم هناك ، وأجزل لهم التعويض عن ممتلكاتهم وأرضهم . ولم تكن أسبابه من قبيل التحامل أو التعصب ، بل هو ـ كما قلنا ـ إجراء لأمن الدولة ، فى عصر كانت الدول فيه دينية لا وطنية ولا مدنية . وللدليل على نفى التعصب عنه أنه كان يساوى فى الخصـومـة أمـامه بين اليهودى وعلى بن أبى طالب نفسه عند القضاء بينهما . فمثله لا يظن به التحيف والتعصب .

ونـأتى بعـد هذا إلى سياستـه فى أرض أهـل الكتـاب التى فتحهـا المسلمون . فهم فلاحون يزرعون تلك الأراضى ويعيشون منها ويمتلكونها ويتوارثونها .

وكـان الأمـر جاريا على عهـد النبى ـ بمـوجب سورة الأنفال ـ على تخصيص الخمس من الغنـائم للنبى أو الخليفـة بعـده ، وتقسم أربعـة الأخماس على الجند الذين تم على يدهم الفتح . وهاهو فتح مبين شمل سواد العـراق ، فلا عجب أن يتـوقع المجاهدون الفاتحون ذلك التقسيم للفىء ويرونه سنة ، بل أمرا سماويا نص عليه القرآن فى تلك السورة .

ولكن عمـر ، برؤيتـه الاقتصـادية والسياسية ، وبعـده عن الطمع العاجل والتعصب ، رفض هذا الرأى ، لأنه رأى فى ذلك مضيعة لأهالى تلك البلاد ، وإنشاء فى الوقت نفسه لطبقة من كبار الملاك من المسلمين المعاصرين ، ثم لا يجد سواهم من المسلمين فى يدهم شيئا ، لأن ملاك هذه الأرض الجدد سيورثونها أبناءهم !

وأيد صديقـه عبد الرحمن بن عوف رأى الجند والقواد فى التقسيم ، ولكن عمر أصر على رأيه ، محتجا ـ وبحق ـ أنه لن تفتح أراض واسعة كهذه

بعد عهده ، فماذا عن المسلمين بعد عهده ؟ وهل تسود الطبقية والتحاسد بينهم ؟

وطلب جنوده التحكيم بين أهل الشورى ، وبسطوا القضية ، ثم قال عمر :

- إنى أعوذ بالله أن أركب ظلما! ولكنى رأيت أنه لم يبق شىء يفتح بعد أرض كسرى . وقد غنمنا الله أموالهم وأرضهم وعلوجهم ، فقسمت ماغنموا من أمواله (منقولة) بين أهلة . وأخرجت الخمس فوجهته على وجهه . وقد رأيت أن أحبس الأرض بعلوجها وأضع عليهم فيها الخراج وفى رقابهم الجزية يؤدونها ، فتكون (إلى الأبد) فيئا للمسلمين : المقاتلة والذرية لمن يأتى بعدهم . أرأيتم هذه الثغور لابد لها من رجال يلزمونها ؟ أرأيتم هذه المدن العظام لابد لها من أن تشحن بالجيوش ولابد من إدرار العطاء عليهم ! فمن أين يعطى هؤلاء إن قسمت الأرض بينهم ؟

وهكذا فرق عمر بين « النص » الذى يتصل بالعقيدة والعبادة ، و« النص » الذى ينظم مصالح الناس . فرأى أنه إذا تغيرت أوجه المصالح ، كان الأوجب والأوفى بالذمة والأمانة وحق الله هو الأخذ بالأصلح .

وكانت نتيجة هذا برا بأهل تلك البلاد ، وقد دخلوا فى ذمة المسلمين ، فبقيت لهم أرضهم ، يؤدون عنها الخراج ، ويؤدون عن أشخاصهم الجزية ، وهم بعد هذا فى أمن من الله وأمان !

لنعم ولى الأمر لأهل الذمة عمر بن الخطاب !

ونعم البطل هو على الجملة ، ونعم المثل !

عمر الرجـل !

شيء من الذاتية

سلفت صفحات برزت فيها سمات البطولة فى عمر ، وكيف هيأته هذه البطولة - حين صار إليه الحكم - أن يكون مضرب المثل فى العدل والنزاهة وإنكار الذات - أعنى الذات الدنيا - من حيث بلغ الغاية من تأكيد الذات - أعنى الذات العليا التى تتجاوز الذاتية - لتتجسد فيها الموضوعية المتجردة عن الأهواء .

ونلم الآن بشىء من سمات عمر التى لا ترجع إلى البطولة ، ولا تصلح مثلا لمن يبغى المثل ، وإنما هى سمات عمر بماهو فرد معين من أفراد البشر ، عربى الأصل والأرومة ، قرشى النشأة والمنبت ، له طبع حار ومزاج حاد أقرب إلى أن يكون ناريا . . .

وفى هذه السمات لا يبدو متجردا من ذاته ، بل تفرض عليه بنيته النفسية والمزاجية أنماطا من السلوك لا توصف بالموضوعية ، وإن لم يتفرد بها عن كثيرين غيره من أبناء حضارته وبيئته .

وأولى هذه السمات شدة شعوره واعتداده بذكورته . وهذه سمة شائعة فى كثير من أمثاله وأبناء جيله وقبيله ، إلا أنها لديه شديدة البروز . . .

وتدعو هذه السمات صاحبها ، بل تحمله حملا ، على أن يكون غيورا متقد الغيرة على كل ما فى الحوزة . ولا سيما المرأة . وإن له مع المرأة لشأنا ينبغى أن يذكر . فالدليل قائم على أنه كان فى بيئة الغيورين ملحوظ التميز باتقاد غيرته على النساء . مع حبه للاستكثار من الزوجات . وهو استكثار

معهود فى أبناء بيئته ، ومفهوم انبثاقه من بنيته الفارهة وطاقته الحيوية العارمة .

ونحن نعلم أنه تزوج تسع نساء فى فترتى جاهليته وإسلامه . وأنه طلق منهن . وله أمهات أولاد من سراريه . ولم يعهد فى بيئته كتمان هذا الميل الشديد إلى كثرة الزواج . . . والجمع بين الضرائر . ومما يروى عنه أنه لما سمع بامرأتين مشهورتين بالنجابة والملاحة كانتا قبل أيامه ، قال على البديهة :

- لو أدركت عفراء وعروة لجمعت بينهما ! (أى لتزوجهما معا !)

وهى كلمة رجل له إلى النساء شوق ملموس وله فيهن رغبة واضحة . . وتدل أيضا ، مع مجمل سيرته مع نسائه ، على أن هذا الشوق الحسى مبعثه فرط الذكورة ، لا اتقاد العاطفة الجمالية . فالعاطفة الجمالية تجعل صاحبها أميل إلى أن يكون أسيرا للجمال ، فيسلمه ذلك إلى العشق والتوله فى امرأة بالذات ، تستحوز عليه . أما عمر فهيهات أن يكون عاشقا ! فطبيعته طبيعة الآخذ لا طبيعة المأخوذ . وطبيعة المالك لا طبيعة المملوك .

ونحن نعلم أنه تزوج فى جاهليته فيمن تزوج امرأة مشهورة بالجمال كان اسمها « العاصية » ، فلما أسلمت غيّر النبى اسمها إلى مايوافق صفتها ، فسماها « الجميلة » . ويقال إنها كانت شديدة التعلق بعمر ، حتى أنها كانت تودعه إلى الباب إذا خرج ، فتقبله ، وتظل تنتظر أوبته . ونعلم أيضا أنه طلق هذه « الجميلة » فى خلافة أبى بكر ، وبقى فى حضانتها ابن له منها صغير . . .

ونعلم أن امرأة من نسائه بلغها أنه سخط على أحد ولاته ، فسألته ماذا صنع حتى استوجب منه هذا السخط ، فما كان من عمر إلا أن قال لها :

- دعى هذه الأمور ولا تسألينى عنها .

ولو اكتفى بهذا لما كان فى الأمر ما يستلفت النظر ، أكثر من غيرة رجل يغار على السلطة العليا التى يضطلع بها ، ويأبى أن تتدخل زوجته فى أمور الدولة أو السياسة ، أو أن تكون لها وساطة فيها . وهذا أمر حسن غاية الحسن ، يتفق مع سيرة « عمر المثل » . . .

ولكنه أردف هذا النهى الحازم بكلمة لا تنبثق من عمر المثل ، بل من عمر الرجل المعين . ذى الطبع النارى ، وذى النظرة المعينة الى جنس النساء بعامة . قال لها « بالفم المليان » :

- إنما أنت لعبة يلعب بها ثم تترك !

وها هنا خنزوانة رجل شديد الاعتداد بذكورته ، شديد الزراية بجنس الاناث . فالمرأة « لعبة » أو « دمية » . . . أو أداة متعة حسية يتلهى بها الرجل الجاد ويستصفى فيها الفائض من حيوية ذكورته .

وقد يقال إنها كلمة قيلت تحت وطأة الغضب المتقد . ولكن الغضب لا يستخرج من النفس الا ما هو مستقر كامن فى طواياها . قد يسب الغاضب زوجته سبًّا فاحشاً - اذا كان سيىء الأدب - وقد يهزأ بشخصها . ولكن لا يخطر له هذا الذى قاله عمر ما لم يكن « وارداً » فى سريرته ، أنه الاساس الذى يربطه بها .

وعمر هو الذى قال أيضاً : إننا ما كنا نعد النساء فى الجاهلية شيئاً حتى فرض الاسلام لهن ما فرضه ، يعنى الحقوق التى كفلها القرآن للمرأة فى الأحوال الشخصية . والاستقلال بالذمة المالية ، وألا تزوج إلا برضاها ، وما إلى ذلك .

وطبيعى أن عمر أول من ينقاد لحكم الاسلام وما فرضه للمرأة من الحقوق الشرعية . . ولكن قوله يدل على دهشته لذلك . ففيما عدا ما هو

« مجبر » بحكم الشرع على إيفاء المرأة إياه ، لا يجد لها قيمة فكرية أو معنوية ترتفع بها عن مستوى « اللعبة » . التى يلهو بها الرجل ، ويملك زمامه كاملا فى تعامله معها .

أليس عمر هو الذى أبى أن يجعل ابنه التقى « عبد الله » فى جملة جماعة الشورى لاختيار من يخلفه عندما طعنه فيروز الفارسى ، وقال فى استنكار واضح :

ـ كيف أولى أمور المسلمين رجلا لا « يحسن » أن يطلق امرأته . . . !

فالمرأة عنده أداة متاع ، وضجيعة فراش ، ولا أكاد أقول « شريكة » فراش ومعيشة ، لأنها فى مرتبة أحسبها عنده لا ترقى معها إلى الند الذى يصلح شريكا . .

هذه إذن ليست السمة التى يصلح بها عمر مثلا لسائر الرجال . وإنما هى سمة عمر الرجل ، بما هو فرد بالذات من البشر . .

وكتب السيرة حافلة بما كان من عمر من الإلحاح على النبى أن يفرض الحجاب على زوجاته . وكيف أحرج أم المؤمنين « سودة بنت زمعة » لما رآها تخرج فى الليل لمكان قضاء الحاجة ، فصاح وهو فى مجلس الرجال :

ـ عرفتك يا سودة !

ولكم ضاقت زوجات النبى بهذا « التدخل » فى أمورهن وابنته حفصة من بينهن ، وظل على إلحاحه هذا إلى أن نزل فرض الحجاب على أمهات المؤمنين . . .

●

ولاشك أن من دلائل غيرته التى لا تصلح مضرب المثل مطاوعة منه لطبعه النارى ، ما كان من أمره حين سمع ذات ليلة شابة تتغنى فى بيتها ـ وهو يسعى ويتفقد الرعية :

هل من سبيل إلى خمر فأشربها
أم من سبيل إلى نصر بن حجاج !

فما أن طلع الصبح حتى بعث « أمير المؤمنين » من جاءه بصاحب هذا الاسم . فاذا شاب من أجمل ما خلق الله ، وله لمة شعر بديعة ، فما كان منه إلا أن قال :

- قصوا له شعره !

ففعلوا ، فإذا جبينه الوضاء يزداد وضاءة ، حتى حاكى البدر فى تمامه ، فصاح بهم :

- عمموه !

فعمموه ، فزاد بهاء ! فنفدت حيلة عمر ، وصاح فى غيظ بالغ :

- لا والله ! لا تقيم فى أرض « أنا » بها !

وأعطاه مبلغا من المال يدبر به حاله ويتاجر فيه ، ويعث به ليقيم فى البصرة !

وهو حكم لا يمكن أن يوصف بالعدل ، أملته غيرة عمر المتقدة وحميته أن يساكنه من تتغزل فى حسنه النساء ، لا غيرة منه طبعا ، بل أنفة أن يحدث هذا فى بلد « هو » بها . فلئن كان هذا الفتى فتنة ستكون بعيدا عن سمع « عمر » وبصره . . . !

ويقال إن هذا الفتى كان له ابن عم اسمه أبو ذويب . سمع عمر أن النساء يتحدثن بجماله ، ففعل به مثل ما فعل بنصر ابن عمه ، وأرسله إلى البصرة أيضا . !

فهذا غضب عمر « الرجل » ، لا موضوعية عمر « المثل » !

وتبقى درته وخشونته ، وكان معاصروه يتحدثون عنها الحديث الذى يقطع بأنها فاقت المألوف فى بيئة الخشونة . وقلنا آنفا أن هذه الخشونة فى القول ، من قبيل : « لا أم لك ! » إنما هى نتيجة حمية الرجل وشدته على نفسه قبل شدته على الناس . . . فهى من سمات عمر الرجل ، ولكنها تغتفر له لأنها سمة نابعة من تكوين عمر البطل ، الذى صار بعدله وتسويته بين الناس كافة مضرب المثل .

ولا أحسبنى إلا سعيدا لو عشت فى ظل حكمه ، شديد الاكبار له والاعجاب به .

ولكن لا أظننى كنت أتمنى صحبته لأسمع لفظه الخشن ، أو أتعرض لدرته المشهورة . . .

ولكن من الانصاف أن نسأل أنفسنا :

ـ أمن الأفضل أن يكون عمر بهذه العظمة والموضوعية ، وتلحق بها هذه السمات الذاتية . أم ألا يكون بهذه ولا تلك !

ولا يختلف اثنان فى أن عمر « هكذا » و « على علاته » ذخر كبير من ذخائر التاريخ البشرى ، ومثل رفيع جدا لكل من تحدثه نفسه أن يكون حاكما عادلا نزيها لا يعلق بعدله ونزاهته شائبة . . .

وكفاه فخرا أن الجانب الذاتى من حياته ما كان يمكن أن يكون أضأل من هذا ، بتأثير بيئته وبنيته ، وأن الجانب الموضوعى من حياته صار مضرب الأمثال ، حتى ليكاد يلحق بالأساطير وأحاديث المحال . . .

مات عمر . عاش عمر !

وعلى غير توقع طعن عبد فارسى موتور عمر بن الخطاب . وكثرت الأقوال فى أمر مصرعه أهو مكيدة سياسية من خصوم العرب المهزومين الذين زال سلطانهم وملكهم على يديه ، أم هى جريمة فردية . . .

وما اهتز عمر ، بل كان مثلا « رواقيا » رائعا للشجاعة فى مواجهة الموت . وشغل نفسه بتدبير أمر الدولة من بعده كى تنتقل السلطة العليا انتقالا هادئا إلى خليفته الذى يختاره « أهل الشورى » الذين عينهم . . .

وبكاه كثيرون . ولكن نفسى لم تهتز لرثاء قدر ما اهتزت لهذه الأبيات :

رعى الله عهدا من إمام وباركت يد الله فى هذا الأديم الممزق
قضيت أمورا ثم غادرت بعدها بوائق فى أكمامها لم تفتق
فمن يسع ، أو يركب جناحى نعامة ليلحق ما حاولت بالأمس يُسبق !

أجل مات عمر ، والموت نهاية كل البشر

ولكن لئن مات عمر البطل ، وعمر الرجل ، فليحى عمر المثل ، ما بقى للعظمة فضل مشهود وذكر ممدود ، وهمة يستحق صاحبها الثناء والخلود . . .

وقد فرغت من تأليف هذا الكتاب فى الخامس من سبتمبر سنة إحدى وثمانين من القرن العشرين .

نظمى لوقا

من رفيق الأرض
المتمردين على الأغلال

كتب للدكتور نظمي لوقا

تنشرها مكتبة غريب ١ ، ٣ شارع كامل صدقى ـ الفجالة .

١ ـ نحو مفهوم إنسانى للانسان والوجود والمطلق .

٢ ـ الله : وجوده ووحدانيته بين فلسفتى والدين .

٣ ـ الله والانسان والقيمة .

٤ ـ على مائدة المسيح .

٥ ـ محمد فى حياته الخاصة .

٦ ـ انا والاسلام .

٧ ـ التقاء المسيحية والاسلام .

٨ ـ ابو بكر حوارى محمد .

٩ ـ عمرو بن العاص .

١٠ـ الزواج وأخلاقيات الجنس .

١١ـ الحقيقة عند فلاسفة المسلمين .

١٢ـ فرويد يفسر أحلامك .

١٣ـ الألوهية ومحاكمة العقل .

١٤ـ فرويد يحدثك عن الحرام .

قريبـــا

١٥ـ المحترق بين الشك واليقين .

١٦ـ فرويد يحدثك عن الجنس .

١٧ـ فرويد يحدثك عن الأمراض النفسية فى حياتك اليومية .

١٨ـ محاكمة الديمقراطية .

١٩ـ أشعار المتمرد القديم .

رقم الايداع ٨٢٧٩ / ٨٧
الترقيم الدولى ٧ ـ ١٩١ ـ ١٧٢ ـ ٩٧٧

رقم الايداع ٨٢٧٩ / ٨٧
الترقيم الدولى ٧ ـ ١٩١ ـ ١٧٢ ـ ٩٧٧

دار غريب للطباعة

١٢ شارع نوبار (لاظوغلى) القاهرة

ص . ب (٥٨) الدواوين تليفون ٣٥٤٢٠٧٩

هذا الكتاب

غير خافٍ أن تراث الاسلام حافل بما يعنى الانسان ، وليس من الخير للبشرية أن تحجب عنها هذه الكنوز من « الخبرات » و « التجارب » و « القيم » و « السلوكيات » . وما أحرى هذا أن يشغل اهتمام كاتب تعنيه هذه الجوانب ، ويعنيه كل شعاع مضىء ينبثق منها لينير للبشر ـ أياً كانت عقائدهم وقومياتهم ـ طريقهم فى حياتهم المعاصرة التى انبهمت فيها المعايير .

هكذا يجيب لنا المفكر المسيحى الدكتور « نظمى لوقا » ـ من خلال هذا الكتاب ـ عن سؤال قد يتبادر إلى أذهان الكثيرين ، وهو : لماذا يكتب مفكر مسيحى عن تراث الاسلام وأقطابه ؟ مؤكدا أن الاسلام ـ بكل تراثه ـ مصدر له وزنه للحضارة الانسانية ، وموضوع للدرس والاعتبار ، لا يخص المسلمين دون سواهم . بل إنه ـ بما هو موضوع للمعرفة العقلية الفاحصة الأمين ـ منهل مبذول لكل ذى عقل وبصيرة ، ولا يشترط فى هذا العاقل البصير طالب المعرفة أن يكون مسلماً .. فالاسلام عقيدة إيمانية لها خصوصيتها . أمّا العقل فلا خصوصية له إلّا معاييره النزيهة التى لا تعرف المجاملة ولا التحامل .

هذا هو المنهج الذى يسير عليه المؤلف فى تناوله لشخصية « عمر بن الخطاب » البطل والمثل والرجل .. فمن يغلق عينيه دون النور ـ كما يقول ـ يضير عينيه ولا يضير النور .

عبد الحميد أحمد غريب